

الطبقات الاجتماعية في العصر المعاصر

الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس

تأليف

صلاح الدين المنجد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة الرسالة

الظرفاء

صفحة

ز — ط

ي — ك

تقديم الكتاب

تمهيد

الفصل الأول :

حقبة الترف — عناصر الترف — الترف في الحياة الاجتماعية العباسية

١ — ٥

الفصل الثاني :

مبدأ الظرف — الظرف والزندقة — انتحال الذوق بالظرف — متظرفو باريس وانتحالهم الرقة والفهم — الظرف بين الفرس واليونان — الظرف في القرن الرابع — منشأ الظرف في باريس « قصر رامبويه » — مقايضة بين ظراف بغداد وباريس

٦ — ١٣

الفصل الثالث :

الظرف والظريف — في كتب اللغة — في كتب الظرف — استدراك — الظرف والشيوخ

١٤ — ١٧

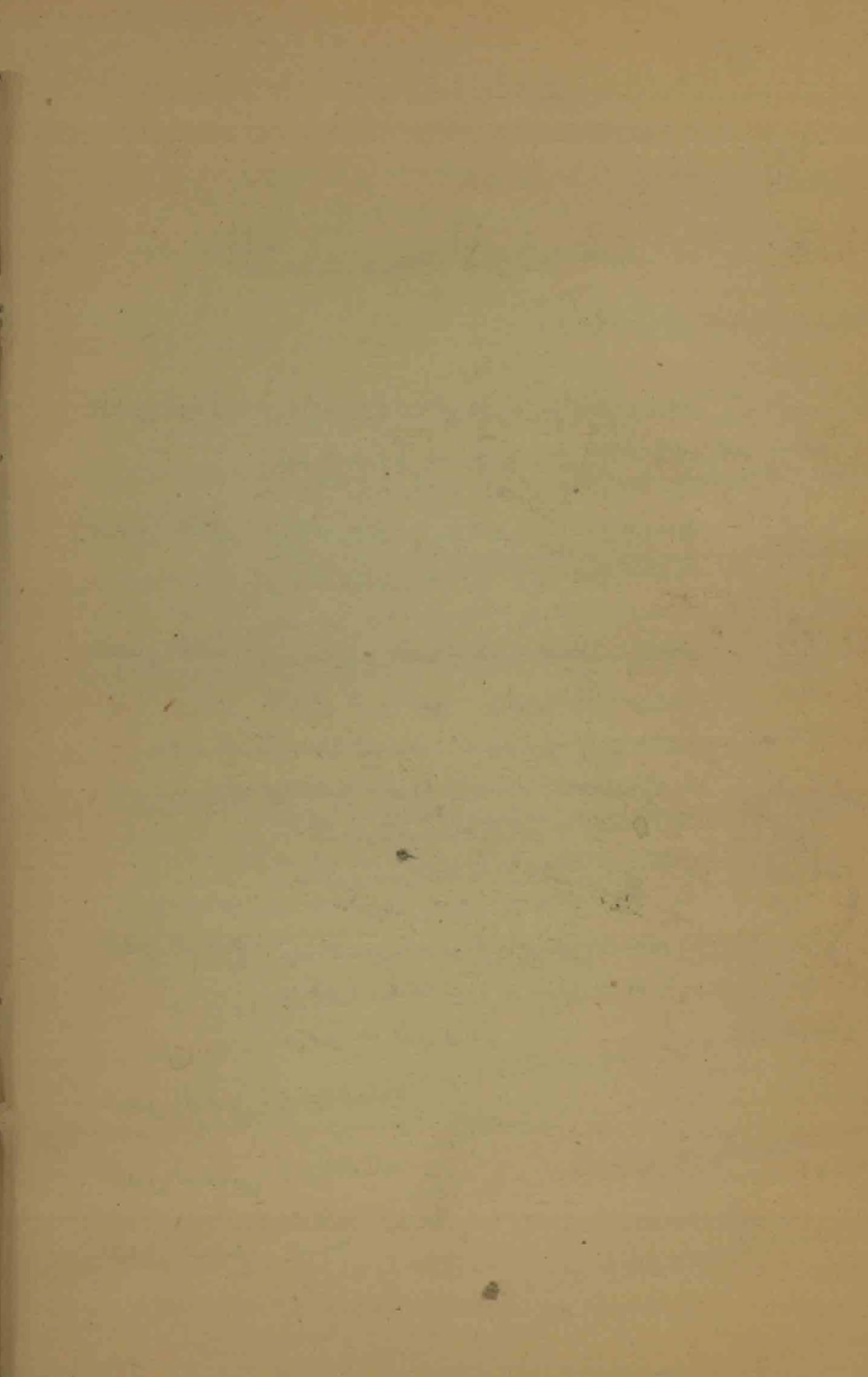
الفصل الرابع :

سيرة الظرفاء — ظرف الخواص وظرف العوام — ملابس الظرفاء — خواتيمهم — طيبهم — موائدهم ومطاعمهم — مساويكهم — مجالس شرابهم

١٨ — ٢٩

الفصل الخامس :

الحب واللذة — محاسن الحب — محبوبات الظرفاء — عشاق الظريفات — صفات هذا الحب — اعترافات



تقديم الكتاب

للأستاذ أحمد حسن الزيات



تاريخ الإسلام الاجتماعي هو تاريخ الشرق كله أدناه وأقصاه في عصوره القديمة والوسيطة ومعظم الحديثة . فإذا أضفت إلى الشرق من بلاد الغرب ، شبه جزيرة إيبيريا ، وشبه جزيرة البلقان ، كان مدلول المجتمع في التاريخ الإسلامي أعمق وأصدق وأدق . وإذا وجدت في ملكوت الرومان بالأمس ، أو في ملكوت الإنجليز اليوم ، ما يشبه هذه السعة في الأرض ، وهذا القباين في الناس ، فلن تجد فيهما ولا في غيرها ذلك المزيج الاجتماعي العجيب الذي ألفه الإسلام من شتى العناصر والطبائع والأخلاق والأذواق والبيئات والعادات والديانات والحضارات والثقافات والأساطير ، فكان من أغزر المصادر وأخصبها وأعجبها للعالم النفسى الذى يحلل ، وللمؤرخ الفلسفى الذى يعلل ، وللشاعر الروائى الذى يستلهم ، وللكاتب القصصى الذى يقتبس ، وللراوية الأديب الذى يُلطف ، ولكل من يوجهه استعداده أو إعداده إلى استغلال الفكر الشرقى ، والنشاط الإنسانى ، فى مختلف حالاته وشتى صورته .

ومن المصائب التي جرّها على أخلاقنا مركّب النقص ،
انصراف أدبائنا ومؤلفينا عن هذا المحيط الزاخر بعجائب الخلق ،
وغرائب الأخلاق ، وطرائف التمدن ، إلى أوّشال من حضارة
الغرب لا يصلها بنا سبب من شعور أو عقيدة أو مجد ، حتى
جرؤ بعضنا على أن يقول : إن من الرجعية أن يكتب الشرقيون
عن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وصالح الدين ، على حين
يكتب الأوربيون عن رزقت ، وتشرشل ، واستالين ! !
لذلك كان صديقنا الأستاذ المنجد برّاً بفنه وأدبه وعربيته
وقوميته حين اتجه إلى الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي
يجلو صورها الاجتماعية الطريفة في مجلّاه المعروف بصفاء
الذوق ، وأناقة الأسلوب ، وحسن الاختيار ، وجمال العرض ،
ودقة الموازنة ، وصحة الحكم . وهو في هذه الصفحات المشرقة
التي أقدمها إليك اليوم ، يعرض عليك صورتين من صور
الطبقات الاجتماعية في العصر العباسي : أوّلاهما في الدرج الأعلى
من سلم الحياة وهي طبقة الظرفاء ؛ وأخراهما في الدرك الأسفل
منه وهي طبقة الشحاذين . والطبقتان على ما بينهما من البعد في
مسافة الخلف ، تسمهما الحضارة للعباسية بالسمة الغالبة على جميع
الطبقات ، وهي اعتماد كل طبقة منها على أصول مرعية وآداب

محتومة ، يميزها لباقة السلوك ، ونصاعة الأدب ، وبراعة الذهن ،
ولطف الحيلة . وتلك مزية الحضارة الصحيحة إذا بلغت أوجها
الممكن سطعت سطوع الشمس فنال من ضوئها وحرارتها كل
رأس وكل نفس في أى طبقة وفي أى بيئة .

إن في الجمع بين طبقتين متضادتين من أهل بغداد ، وفي
الموازنة بين أحوالهما وأحوال أشباههما من أهل باريس ، لدليلاً
على ظرافة في طبع الأستاذ المنجد وطرافة في ذوقه . وإن في
عرضه لهاتين الصورتين هذا العرض المشوّق الجذاب ، إغراء
للقارئ بطلب المزيد ، وإيجاء للمستزيد بتقديم الشكر .

وفي مرجونا أن يتابع الكاتب الصديق سيره المتتد في
هذا الروض العبقري الأفيح ، فيقطف منه ، الفينة بعد الفينة ،
أزهار الجمال والفن والأدب ، تبصرة وذكرى لشبابنا الذين
أوشكوا — على ما يظهر — أن ينسوا أن لهم قديماً كان
جديد الناس ، وحضارة كانت منار الشعوب ، وطابعاً لا يزال
أثره واضحاً فيما ورثه الغرب من علم وفن وأدب ومدنية ؟



تهديد

دفعتنى إلى دراسة أحوال الطبقات الاجتماعية فى العصر العباسى ، رغبة غزامة فى إظهار الحضارة الإسلامية وما بلغت من سمو وعلاء . ثم إنى أدركت ما وراء هذه الرغبة من جهد وبلاء . فالطريق عثار ، والكتب فوضى ، والعناصر مبعثرات ، والمحصل — بعد ذلك — قليل . ولم أجد فى القدامى من أفرد فى عصر من العصور كتاباً قائماً بنفسه لتصوير الحياة الاجتماعية ، لا يخرج عما وضع له حتى آنس به . فالأدباء ، كانوا يقصدون اللهو ؛ والمؤرخون عقلتهم حادثات السياسة والحرب فأهملوا المجتمع ؛ وعلماء البلدان تركوا صوراً قلائل قد تفيدك ؛ والرحالون ، غرهم ما كانوا يلاقون من إكرام وترحاب ، فوصفوا ما أحاط بهم ، من مظاهر خارجية ، وأهملوا التحرى والاستقصاء . وقد تصادف عندهم بعض ما تشتهى مما يعوزه الدقة والشمول ؛ لأن دراسة أحوال الطبقات الاجتماعية ، وعرفان سنتها فى مرافق الحياة ، وإدراك ميولها فى ضروب المعاش ، كل أولئك يتطلب مراقبة طويلة ، ومهلة كبيرة ، ومرافقة دائمة ، وزمناً غير قصير .

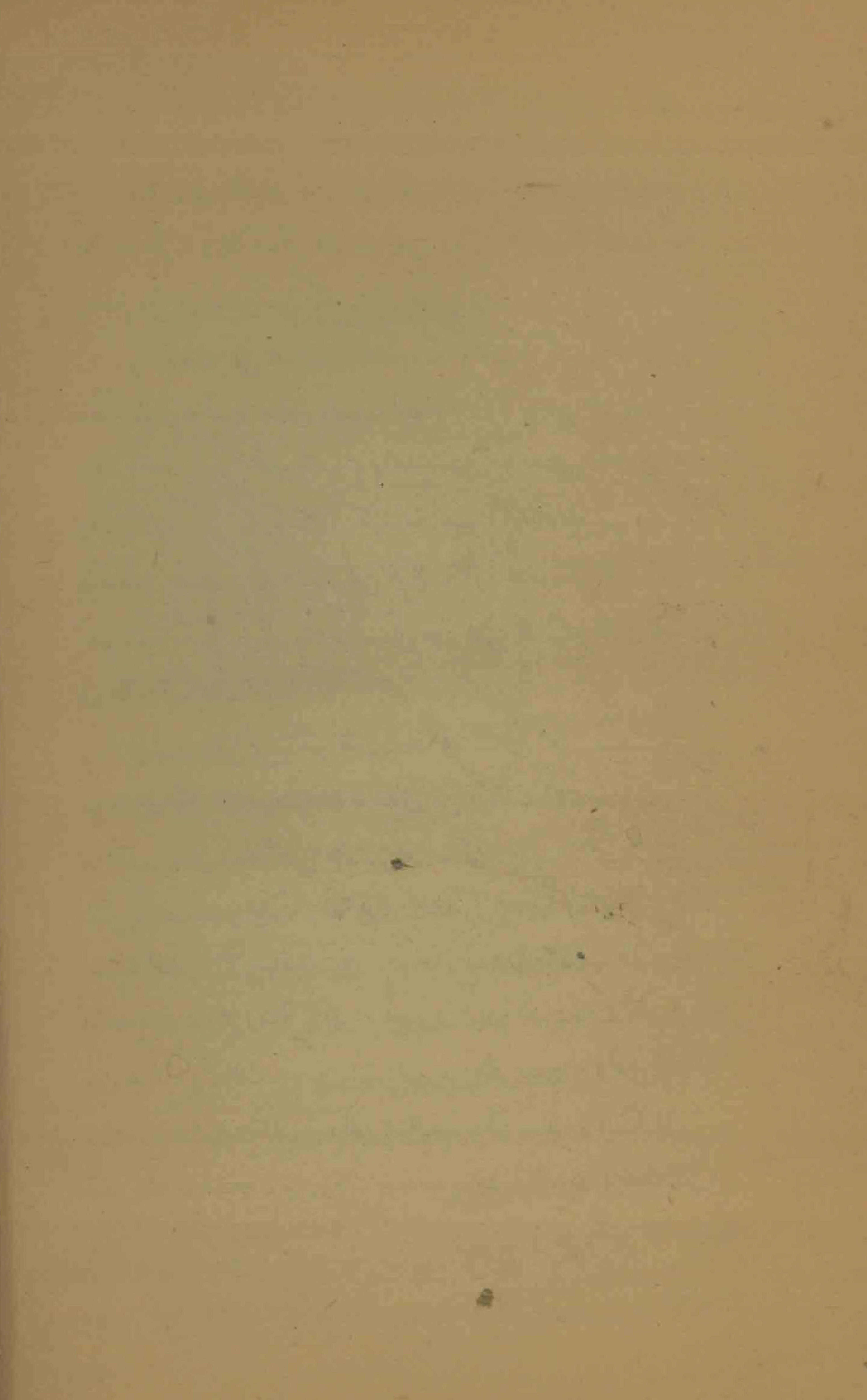
وكأن في القدامى من كان ينظر فلا يلاحظ ، وإذا لاحظ
فلا يفكر ، وإذا فكر فلا يقايس ، وإذا قايس لم يوازن .
وهذا جلي في بعض من كتب تاريخنا وأدبنا .

واعترفت على البحث والتنقيب ، ونفست كتب المحدثين
والأقدمين ، غير حافل بنصب المطالعة ، ولا فوضى التأليف .
ولقد ألفت غبار المخطوطات ، واعتدت قراءة أسقم المخطوط .
وما زلت أذكر كم كنت أكابد من تعب ، أو أقطع من وقت
لأصطاد جملة ، أو أتثبت من قول ، أو أجتنب شبهة . حتى
بلغت ما أملت ، وظفرت بما يعينني على بحثي الواسع الذي تجد
في هذا الكتاب طرفا منه .

ومهما يكن من أمر فستجد في كتابي هذا مبحثين
موجزين بكرين ، يصوران طبقتين من طبقات المجتمع العباسي
ما أحسب أن أحداً من المعاصرين سبقني إليهما ، أو طرقهما
بمثل ما فصلت وبينت . أما المبحث الأول فسيرة الظرفاء ، وهم
صفوة الناس الأرستقراطيين . وأما المبحث الثاني فسيرة
الشحاذين ، وهم رذالة الفقراء المعوزين . ولم أنس ، أن أقايس
بين هؤلاء وأولئك ، وبين أشباههم من الفرنسيين ، وأملى بعد
ذلك ، وقد أوتيت الذوق والفهم والبصر ، أن يعجبك الكتاب
فيغريك موضوعه ، ويروك نهجه ، وتجد فيه مايلذ ويفيد .

بستان الرئيس
دمشق

صالح الدين المنجد



الظرفاء



الفصل الأول

حقبة الترف

١ — رَفَّتْ في العصور العباسية حقبة ذهبية ، تَرَفَّ الناس خلالها فافتنوا في الحياة ، والمعاش ، واللذة ، واللهو ، والتفكير ، وقد طغى الترف فيها على كل شيء حتى ليصح أن تسمي « حقبة الترف » . بدأت بخلافة المهدي (١٥٨ هـ) ، وانتهت في أواخر القرن الرابع الهجري . فزَهَتْ بغداد ، دارُ الملك ، بالنعيم ، وكانت مركز الذوق الرهيف ، والفكر الرشيق ، واللهو الحلو ، والطبع الرقيق ، والغنى الواسع ، والحب الناعم ، والظرف الجميل .

يقول « بودريار Baudrillard » في كتابه « تاريخ عناصر الترف » : إن الترف ينهض على عناصر أربعة . أولها : الزهو والكبرياء . فالمتَرَفُ يزَهِّي ، ويسعى إلى تأييد زهوه بطراقة ما يحيط به . فينشأ عن ذلك ترفُ النِّفَاسَةِ بين المنعمين ؛ فهم يتنافسون في التزين والأناقة ، ويطمعون في مرضاة أشباههم ونيل إعجابهم ؛ فينفقون ولا يأبهون ، ويسرفون ولا يخافون . ثانيها : التمتع بكل لذة حسية يمكن قطفها والتمتع بها

في هذه الدنيا ؛ هما كان لونها وشأنها ، رفعتها وحقارتها .
 ثالثها : غريزة التزين ، والإقبال على الزخرفة والتزيين .
 رابعها : حب الطريف الذي لم يعرفه الناس في كل شيء
 وسرعة ملاله إذا عرفوه ، والرغبة في التنقل من طريف إلى
 جديد . وبهذين العنصرين الأخيرين يتصل الترف بالفن
 أوثق الاتصال وأمتنه .

٢ — والحقيقة أن هذه العناصر كلها ، كانت عند أناس

الترف في

الحياة الاجتماعية بغداد في تلك الحقبة .

العباسية

فقد رفت الحضارة وأزهر الترف ويسرت الحياة ، فزهي
 الخلفاء والأمراء والوزراء ، والظرفاء من الندامى والشعراء ،
 وانطلقوا إثر اللذات كلها يصطادون طريفيها ، ويتخيرون طيبيها ،
 يحميون في قصور ضاحكة ، تسبحو في ظلال النخيل ، وتشرق
 بنضارة النعيم . فيها ستور حمراء ومصفرة ، ومجالس زهر
 مشرقة ، وجدرات ذهبية بالإبريز وموهت باللازورد ،
 ونقشت بالصور ، وازدانت بالتماثيل . وفيها أبواب عظام ضخام
 تتدلى منهن مسامير من ذهب قمعت رؤوسها بالجوهر النفيس ،
 وفرش مختلفات الضروب والصنوف ، وبسط زركشت
 بالنضار وطرزت بالحرير^(١) . ويطربون لنغمات المزاهر والعيدان

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٥ .

وَيَسْمَلُونَ بِرَشَفَاتِ الْحَرِّ ، وَعَبَقِ الرِّيحَانِ . وَيَرْعَوْنَ الْجَمَالَ
 الْغَضَّ ، بَيْنَ غُلَامَانِ وَحِسَاتٍ . وَيَلْبَسُونَ الْوَشْيَ وَالْخَزَّ .
 وَيَأْكُلُونَ لَحْمَ السَّمَكِ وَالِدَّجَاجِ . وَلَا يَبَالُونَ فِي سَبِيلِ تَرْفِهِمْ
 هَذَا ، أَنْ يَعْلِفُوا الْفَرَارِيحَ بِالْفَسْتَقِ الْمَقْشَرِ ، وَيَسْقَوْهَا اللَّبَنَ
 وَالْحَلِيبَ ^(١) ، أَوْ أَنْ يَطْعَمُوا كَلَابَهُمُ الدَّجَاجَ الْمُسَمَّنَ وَالْجِدَاءَ
 كَمَا يَأْكُلُونَ ، وَيَعْلِفُوا حَمِيرَهُمُ السَّمْسَمَ كَمَا يَتَنَقَّلُونَ ^(٢) . ثُمَّ
 يَشْغَفُونَ بِصَيْدِ الظُّبَاءِ وَالْوَحُوشِ ، وَيَهَيِّمُونَ بِاِقْتِنَاصِ الْمَجَانِنَاتِ
 فِي الْبَسَاتِينِ وَالرِّيَاضِ بَيْنَ الْأَزْهَارِ وَالْأَنْوَارِ ، وَيَقْطَعُونَ اللَّيَالِيَ
 فِي الدِّيَارَاتِ وَالْحَمَارَاتِ ، عَلَى هَدِيرِ السَّلَافَةِ ، وَرَنِينَ النَّاقُوسِ ،
 وَهَتَفَاتِ السَّكَارَى ، وَأَشْعَارِ الْفَدَامَى ، وَرِعَايَةِ الرَّاهِبَاتِ ^(٣) .
 فَإِذَا فَرَحُوا فَلَا تَسْلَ عَنْ الْبَذْخِ ، وَلَا تَحْفَلُ بِالْذَّنَانِيرِ ، وَلَا
 تَشْدَهُكَ الْأَنَاقَةُ . فَاْلْمَهْدَى يُزَوِّجُ الرَّشِيدَ ؛ فَيَعْدُّ لِعَرْسِهِ مِنْ
 الْفُرُشِ وَالْمَتَاعِ ، وَالْأَنِيَةِ وَالْآلَاتِ ، وَصِنَادِيقِ الْحُلِيِّ وَالْجَوْهَرِ ،
 وَالْأَكَالِيلِ وَالتَّيْجَانِ ، وَقُبَابِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ ، وَمِثَاقِيلِ الْمَسْكِ
 وَالْعَنْبَرِ ، مَا أَتَّفَقَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ ^(٤) . وَالْمَأْمُونُ

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ١٤٠

(٢) البخلاء ص ١٩ وبتيمة الدهر ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) الديارات للشابشتي (مخطوط) أنظر متلا دير السوسى ، دير صرمار

(٤) عيون التواريخ ، لابن شاكر (مخطوط في الظاهرية)

ينثر في عرسه ألفَ حصاة من الياقوت ، وتغيس بوران أمامه
فوق بساط نسجهُ خيوطٌ من الذهب ، كللت بالدرر^(١) . بل
دعُ هذا وذاك ، وتمثل وليمة المتوكل في إعداد ابنه المعتز ،
وانظر إلى خمسة آلاف باقة من النرجس ، وعشرة آلاف باقة
من البنفسج ، ينفثن في جنبات القصر ، فتعجّ بشذاها أجواؤه ،
وتزدان بمنظرها أبهاؤه^(٢) . فما تبصر عينك ، أينما توجهت ،
غير إشراق الجمال ، وسطوع الذهب ، وفرة الهبات ، والغلو
في البذخ ، والإسراف في الإنفاق ، ونفاسة المأكول ، وغرابة
المشروب ، وثمين الملبوس ، والناعم من كل فن .

٣ — فليس من الغريب ، أن تولد هذه الحياة المترفة ،
وتلك الدنيا التي حفلت بالجوهر والياقوت ، والذهب والفضة ،
والحسان والغرائق ، والحب والهوى واللذة والشعر ، قوما لم
عاداتهم وطباعهم ، ولباسهم وطعامهم ، ولهوهم وقصصهم اسمهم
« الظراف والمتظرفات » .

لقد كانوا أبناء تلك البيئة النادرة التي أنشأتها أجناس
وثقافات وثروات . فقضوا حياة كلّها فن ؛ لأن الفن ، كما يقول

(١) المصدر السابق : ج ٦ سنة ٢١٠ .

(٢) الديارات للشابشي : دير السوسي .

٥

الأستاذ لالو ، هو وليدُ الترف ، أو هو الترف منظمًا^(١) . فساقهم
هذا الفن إلى الأناقة والتزويق ، ثم إلى التكلف والتصنيع .
وقد تجدد لديهم بساطة لا تخلو من جمال ، لأن البسيط هو الجميل .
وقد يعجبك النظام الذي اتبعوه ، والفوضى التي أحبوها بعض
الأحايين ، على أن الذي يدهشك حقاً هو الكمال الاجتماعي
« La perfection Sociale » الذي بلغوه ، ثم لا تلبث إذا
علمت سيرتهم أن تقر بأنهم عرفوا وذاقوا ما لم يعرفه الغرب
أو يذقه ، إلا في هذه الأيام ، بعد مئات من السنين .

الفصل الثاني

مبدأ الظرف (*)

٤ — انتشر الظرف أول ما انتشر ، كذهب في الحياة اتبعه نفر من الناس ، مذ تولى المهدي الخلافة (١٥٨ هـ) . فقد اتسعت أموال الخراج والجبايات ، وحملت من الأقطار والكور إلى بغداد . ففاضت الثروة وترف المثرون ، وانطلق الفرس في العراق ينشرون ما اعتادوه من عادات ، وما ورتوه عن أمتهم من سنن في الحياة ؛ ينقلون إلى اللغة العربية كتبهم وسير ملوكهم ، ويؤلف أدباء بغداد في أخلاقهم وخصالهم . فقد نقل ابن المقفع كتاب « خدائمه » في سير الملوك (١) . وألف الجاحظ أو الثعلبي كتاب « التاج » .

وضعف سلطان الدين في قصور الخلافة ، فأعرض المهدي

(*) لا نتحدث هنا عن الظرف الذي كان في الحجاز وخاصة في المدينة في القرن الأول ، لأنه من نوع آخر ، لم يتبع نهوجا وقواعد وقيودا كظرف بغداد ، ولم يكن وليد الترف والتصنع والحضارة ، وهذا ما أردنا تبليانه هنا ، بل كان لا يعدو خفة الروح ورقة الطباع .

عما كان يفعله السفاح والمنصور من التزمت والوقار^(١) ، فهد السبيل لمن تبعه من الخلفاء ونعم ولد ، حتى أخرج قصره ولده إبراهيم ، زينة المجالس وبهجة الندامى ، كما أنبت عليه ريحانة النساء وحلية المتظرفات^(٢) .

ه — ولسرعان ما تسابق الناس إلى الظرف ، فقد أضحى الظرف والزندقة « هواية العصر » وصار محبباً إليهم يودون انتحاله ، واللاحق بأصحابه . وأصحابه أناس أطلقوا أنفسهم في اللهو العنان ، وجروا وراء اللذات والمسرات ، وهاموا بالجمال والنعميات ؛ لا يقيدهم قيد موروث ، ولا بأسرهم عرف معروف ، ولا يحول حائل بينهم وبين ما يشتهون . فاقترن الظرف بادیء بدء بالزندقة ، وسواء أكانت زندقة المتزندقين حقاً أم افتراءً ، فقد لمس أهل بغداد فيهم رقة ولطفاً ، ورأوا حرية في العواطف والأفكار ، وصراحة في إظهارها والجهر بها . وتلك أشاؤ لم يألفها الناس العوام والخواص ، ولم يكن لهم عهدٌ بها . فالدين جديدٌ وهم قريبو عهد بالتابعين . فكان أن قالوا : « أظرف من زنديق » لأن الزندقة لم تمنعهم من الاعتراف بظرف أصحابها . وسار ذلك مثلاً على قول الثعالبي ، في زمان كثير ظرفاؤه — وهو زمن المهدي —

(١) التاج في أخلاق الملوك ص ٥٣ .

(٢) ضحى الاسلام ج ١ — ص ١٠٨ .

كصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحماد، ومطيع، ويحيى بن زياد
 وعلى بن الخليل، وأمثالهم ممن تقدّمهم بقليل كابن المقفع وابن
 أبي العوجاء. وما منهم في الظاهر إلا نظيف البرّة، جميل
 الشكل، ظاهر المروءة، فصيح اللهجة، ظريف التفضيل^(١)
 وإذا لاحظت أن الكثرة من هؤلاء الذين سماهم الثعالبي
 بل كلهم، كانوا من أصل فارسي، علمت أن الفرس هم بدأوا
 بالظرف، وأخذوا بنشره. ولعلمهم لم يقصدوا نشره قصداً، وإنما
 كانت طباعهم ونشأتهم البسيكولوجية أقرب إلى الرقة والأناقة
 والحضارة من طباع العرب، وهم قراب عهد بالبادية وما فيها
 من شدة وقسوة وجفاء. فلم يكن بد، وقد ظهر ظرفهم،
 وشاعت نوادرهم من أن يقبل على التطرف، كل بعيد عنهم
 أو قريب منهم. فأصبحت الزندقة سبيلاً إلى الظرف. وأضحى
 الجاهل الغر يتطفل على الزندقة، وينتحلها ليعدّ من الظرفاء^(٢)
 وقد ذكرنا أن محمد بن زياد تزندق تظارفاً فقال ابن مناذر فيه:
 لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف^(٣)
 وربما كان الظرف بعيداً عنه، لا سبيل له إليه، بل ربما

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨.

(٣) الأغاني (سأسي) ج ١٧ ص ١٥.

فانتها الرقة وأعوزه الذوق ، ولكنه تزندق ليقال إنه ظريف :
 تزندق معلناً ليقول قوم من الأدباء ، زنديقٌ ظريفٌ
 فقد بقي التزندق فيه وسماً
 وما قيل الظريف ولا الخفيف^(١)

٦ — على أن الأمر لم يقف عند اكتساب الظرف ، بل
 انتحال الذوق بالظرف تجاوزه إلى انتحال الذوق والعقل والأدب عن طريق الظرف أيضاً.
 يقول الجاحظ: « فر بما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ، ولا تحصيل
 له ، أن الزنادقة ظرفاء ، وأنهم عقلاء ، وأن لهم البصائر في
 دينهم ، والبذل لمهجتهم ، وأن هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً
 وتحصيلاً ، فينزونهم ونحوهم نزو المهرالأرن ، ويحن إليهم حنين الواله
 العجول ، ويتصبّب فيهم صباية العاشق المتيم ، ويرى أنه متى
 اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله^(٢) .

٧ — هكذا كان المتظرفون يلتمسون العلم والعقل والأدب
 بالظرف ، ويلتمسون الظرف بالزندقة . كما التمس المتظرفون في
 فرنسا ، في القرن السابع عشر ، الرقة ، وإشراق الذهن ، والفهم
 والنبيل ، بالظرف أيضاً ؛ حتى لجوا في ذلك وتكلفوا ، فخرجوا
 عن الظرف إلى الخدلة . وأضحوا بشذوذهم أضحوكة الشعراء ،
 وأهزولة الأدباء^(٣) .

(١) ثمار القلوب ص ١٣٩ .

(٢) ثمار القلوب ص ١٣٩ .

(٣) N. Larousse Illustré. mat. Précieux T. VII. (٣)

على أن ظراف بغداد لم يتكلفوا تكلفِ ظراف باريس ،
ولم يسكنوا سخرية الشعراء ، بل كانوا مهوى الأفئدة ومُنية
الأرواح .

الظرف
بين الفرس
واليونان

٨ — وطفت الحضارة ، فأنعمس فيها ناس من الناس ورقّت
الطبائع والأذواق وأخذ أهل بغداد عادات الفرس كلها في الحياة .
واعل أثر الفرس في ذلك كان أظهر من أثر اليونان . فلقد أثر
اليونان في الحياة العقلية فأنتمجت الفلسفة والجدل والمنطق ... ،
وهذه أشاؤ لا تتصل بالظرف بقليل ولا كثير ، ولم يؤثر عن
ظريف أنه قطع عمره بالفلسفة ؛ لأن حياة الظرف وما فيها من
لهو وأنافة وزينة ، هي أبعد عن تلك الحياة . ومن الواضح أن
الظرف زاد ونما ، وانتشر انتشاراً واسعاً ، وصار نتيجة أسباب
شتى من الحضارة والثقافة والجنس معاً . ولا ننكر بعد هذا
أثر المرأة وما كان لها من تأثير في تلطيف العيش واختراع
صروب اللهو وألوان اللذات ؛ فسعى نحوها الرجال فتذوّقوا
ورقوا ، وسعت القيان إلى أولئك الرجال ، فبرقن أنفسهن
وتزينن ، وجهدن في إرضائهم وإغوائهم . فكان من نتائج هذا
السعي المتبادل التظرف والتزين والإرضاء .

ونلاحظ أنه قلّ مَنْ نُعت بالظرف من الفقراء . فقد خصّ
بأولئك الذين ذاقوا النعيم في قصور الخلفاء والوزراء ، من

الشعراء والأسماء والندماء والأدباء . أما في النساء ، فقد كانت
القيينات مصدر الظرف ، سهرن عليه ورعيته .

٩— وما زال الظرف ينمو حتى أصبح له قواعد ونظم . وبلغ
ذروة الكمال في القرن الرابع . تدرّج من البساطة إلى التكلف
ومن الأناقة إلى التأنق ، ومن الظرافة إلى التظرف . وشاعت
الزينة والتزويق في كل شيء . وألف الوشاء كتابه الموشى
فضّله بعض أحاديث الظراف ، ووصفهم في قصورهم كما وصف
« ماريشو Marivaux » في مسرحياته ، الطبقة المتظرفة المترفة ،
في عالم يرف بالذهب والحرير ، تحت ظلال الملكية ، في القرن
الثامن عشر .^(١)

١٠— هذا مبدأ الظرف في بغداد ؛ أما منشأ الظرف في باريس
فكان في قصر رامبويه . L.Hotel de Rambouillet وكانت
المر كيزة صاحبه ، أول من دعا إلى الظرف في فرنسا . فكان
يجتمع في قصرها العظيم الظراف الكبار من الأرسثوقراطيين
والأدباء والشعراء ، أشباه قواتور Voiture ذي الظل الخفيف
والنكتة الباردة ، وفوجولا Vaugelas النحوي ، وكورنيل
Corneille الشاعر ، ولاروشفوكو La Rochefoucauld الحكيم

(١) Louis Jouvet, Marivaux : Theatre et Personnages

Conferencia : xlll, Juin 1939. P. 2o.

و بوسويه Bossuet الواعظ . تحيط بهم أجمل النساء وأرقهن
 كدام دُ سيقينيه Mme de Sévigné صاحبة الرسائل ، ومدام
 دُ لافايت Mme de La Fayette مؤلفة « الأميرة دُ كليف
 Princesse de Clèves » ، والآنسة « دُ سكوديري
 Mlle de Scudery ، ومدام سابله Mme Sablé ، والكونتيس
 دُ مور Ctésse de Maure وكان هدفهم جميعاً ترهيف الأذواق
 وصقل العادات ، وتهذيب اللغة .

وفي القرن الثامن عشر حذت « مدام لامبير Mme Lambert
 حذو المر كيزة دُ رامبويّة ففتحت بهوها وأحاطت نفسها بالأدباء
 والفلاسفة . وتبعته « مدام دُ ديفاند Mme du Deffand »
 « والآنسة دُ ليسبيناس Melle de Lespinasse » وأصبحت
 هذه الأبهاء الأدبية مركز الظرف تارة والخذلقة والتصنع أخرى
 ١١ — ولعلك تجد بعد هذا تشابهاً بين ظرافنا وِظرافهم . ولقد
 نما الظرف في بغداد عند الطبقة الأرسوقراطية ، كما خرج في
 قصر رامبويّة وساعد على نشره المترفون في باريس وبغداد ،
 وحمته النساء هناك ، ورعته القيان هنا ، ثم كان التزويق
 عندنا ، وكان التصنع والتخذلق عندهم .

مقايسة بين
 ظراف بغداد
 وباريس

وكما كان ظرافنا الأدباء والشعراء والندامي والقيان يجتمعون
 في أندية خاصّة ، أو في قصور الخلافة ، ينشدون الأشعار ،

ويستمعون إلى الغناء ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث ، كان
ظراف قصر رامبويه يستمعون إلى الشعراء ينشدون الشعر ،
وإلى الأدباء يرسلون النكات . وفي الغرفة الزرقاء ، غرفة
المركيبة ، المزدانة بالزهر في أواني البلور ، ذات النوافذ العريضة
التي يتدفق منها النور ، كانوا يرقصون ويطربون ، فواحدة تغنيهم
أغنيهم الشهيرة *L'ijncomparable Arthémice* وأخرى تقص
عليهم الأقاصيص ، وفوجولا يلطف لهم النحو ، وكورنيل يقرأ عليهم
مسرحية بوليوكت *Polyeucte* ، وبوسويه يرسل مواعظه . وأمل في
رواية « *Artamène Ou le Grand Cyrus* الكبير »
التي ألفتها الآنسة دُ سكوديري *M elle Ole Scudery* صورة
دقيقة ناطقة لنساء هذا القصر ورجاله ، ورواده وزائريه (١)

(١) وإن شئت التفصيل فانظر :

Hazard, Bedier : *Litterature Sraucaise Zllustee'* T. I
P 230, Livet : *Précieux et Précieuses* [Paris 1910]

الفصل الثالث

الظرف والظريف

في كتب اللغة

١٢ — ولعلك تسأل بعد ، عن الظرف والظريف ، وتود أن تعلم كيف يصبح الرجل ظريفاً . أما كتب اللغة فتقول « الظرف (بالفتح) الوعاء ؛ وهو الكياسة . وقد ظُرف ظرفاً وظرافة ، فهو ظريف من الظرفاء . ويكون الظرف في اللسان ، أو هو حسنُ الوجه والهيئة ، أو البراعة والحدق والذكاء ، أو التودد إلى الإخوان . ولا يوصف به إلا الفتيان الأزوال ، والفتيات الزولات ^(١) . »

في كتب الظرف

١٣ — فأنت ترى أن كتب اللغة لم تحدد معنى الظرف ولم تعرفه تعريفاً شاملاً يتضمن خصائص هذه الكلمة ، وما توحىه من معان ، وما يتبعها من ألوان وظلال ، وما تشير إليه ... فقد تركته تعريفاً واسعاً لا جزم فيه ، ولا تحديد ولا تدقيق . فلندعها إلى كتب الظرف ، ولنقرأ ما اتخذ الناس له من معنى . يقول

(١) اللسان والأساسي ، والقاموس والتاج .

الوشاء: « لا يكون الظريف ظريفاً حتى تجتمع فيه أربع خصال :
 الفصاحة ، والبلاغة ، والعفة ، والنزاهة^(١) » وقد ذكروا أن
 الظريف هو ، من كان إلى ذلك ، حسن الوجه ، رضى الهيئة ،
 متأديباً قد أخذ من العلوم فصار وعاء لها ، رقيق الطبع ، صادق
 اللهجة ، كاتماً للسر^(٢) .

فإذا جمعنا هذه العناصر التي ذكرتها كتب الظرفاء ، علمنا
 أن الظريف هو الفصيح البليغ ، الحسن الوجه ، الجميل الهيئة ،
 الرقيق الطبع ، الصادق اللهجة ، النزيه العفيف ، ذو الخلق
 السمح الكريم . وقد جمعها ابن الجوزي حين عرف الظرف
 في كتابه « الظراف والمتماجنون » وأضاف إليها عنصراً آخر ،
 هو حلاوة النكتة^(٣) .

استدراك

١٤ — على أن هذا التعريف لا يدل على الظرف ولا ينبىء
 عن الظريف ؛ لأن الصدق ، والرقّة ، والعفة ، وكرم الأخلاق ،
 ووضاءة الوجه ، صفات عامة يشترك بها الناس جميعاً ، لا تدل
 إذا وجدت في شخص على أنه ظريف كظرافنا . فكم من
 رضى الوجه ثقيل الروح . وكم من قبيح الصورة خفيف الظل

(١) الموشى ج ١ ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ص ١٤١ .

(٣) الظراف والمتماجنون ص ٣ .

وإنما الذى يميز هذه العصابة من الناس ، هو ما تفرّدت به من صفات لا تجدّها عند الناس جميعاً . فقد كان لها عناصر بسيكولوجية خاصة ميّزتها من غيرها . كرهافة فى العواطف ، واضطراب فى الأهواء ، ولطافة فى الشئائل ، وتبّع الجمال ، والتأنق فى اللباس والطيب والزينة ، والهيام بالرياض والأزهار ، والولوع بالطريف الذى لم تعرفه العوام ، واللباقة فى التعبير عن الإحساس والأفكار ، وزهو حلوى يشتهد عند المتظرّفات ، وعناية بالشعر الغنائى الغزلى الذى يترجم عن العواطف والخواطر ، واحتفال بالحب والهوى ، وهيام فى إثر اللذات والمجون . وأعل هذه الصفات هى التى كانت تحلّى ظريقات باريس وظرافها . بل إنها هى نفسها ، لولا ما زاد من تكلف ظراف باريس ، وما لطف من طباع ظراف بغداد .

الظرف والشيوخ ١٥ — ولا بد من الوقوف عند إشارة ذكرتها كتب اللغة . فيها

كثير من التحليل النفسى ، ودقة الملاحظة . فقد خصت المعاجم الظرف بالفتيان والفتيات ، ونفّته عن العجائز من الرجال والنساء ؛ وهذه إشارة لطيفة حقاً . فروائح الجنة فى الشباب ، والظرف نفحة من نفحات الجنان ، وومضة من ومضات الصبا . وهو

أقرب إلى الشباب الحلو وما يحلو فيه من أناقة وترف وزهو
 وجمال ، منه إلى الكهولة وما فيها من تزمّت ووقار وقناعة
 وسكون . فالظرف لا يليق إلا بمن كان غضّ الغصن ريان
 الفتوة . وصفاته لا تظهر إلا فيمن كان خفيف الحركات بسام
 الوجه . ولو أن شيخاً اتصف بها أو نظرف لسمج في الأعين
 واستهجن في القلوب . وليس معنى هذا أنك لن تجد بين
 الشيوخ ظرفاء ، ولكن شتان بين غصن وريق رطيب تتدفق
 فيه الحياة ، وآخر أجرد سلبب تتقلص منه .

الفصل الرابع

— ١ —

سيرة الظرفاء

ظرف الخواص ١٦ — أقبل الناس على الظرف. فنشأ ظرفان أولوان من الظرف! وظرف العوام
 ظرافة الخواص الأرستوقراطيين، وتظرف العوام الديموقراطيين؛
 فقد كانت العامة تقلد الخاصة في أزيائها وأفعالها، وتنظر إلى
 ما تأتي به نظرة إعجاب فينتشر بينها، كما كان العوام في باريس
 يقلدون عصابة قصر رامبويه تارة، ورجال المسرح أخرى^(١)
 ثم لا يلبث الظراف أن يتحولوا عن زى ما، عندما يرون أن العامة
 قد أخذت عنهم؛ ومن هنا نتج ميلهم للتنقل من جديد إلى
 جديد. ولئن ابتذل الظرف عند العامة، فقد ظلّ ظرف
 الخواص أنبل ما استعمله العلماء، ومال إليه الأدباء، وسعى إليه
 الشعراء. وكان زينة يتزينون به عند الأوداء. ولم يكن الناظر
 بحاجة إلى طويل وقت وعظيم جهد ليعرف الظريف؛ فقد كانت
 دلائله واضحة ظاهرة؛ لأن المطبوع على الظرف يهش له القلب

(١) Ch, Lalo, L'Art et la vie Sociale r. 117

ويشهد بحلاوته ، وتهفو إليه النفس وتسكن إلى مجالسته . فإذا تحدث صبا السامع إلى حديثه ، أو جالس أحسن إلى جليسه . فحركاته تدل عليه ، وجميل مذهبه ينبئ عنه ، وأناقته بزّته تشير إليه . فقد كان من عادة الظراف التقرّز والنظافة واللطافة ولبس الزى الخاص بهم^(١) .

١٧ — أما النظافة والتقرّز واللطافة فأمر جليّة ذات شأن ، ملابس الظرفاء ندرتها ونرغب فيها ، ونعلم ما لها من أثر في المظهر والمنظر والعشرة فما هو زيههم في اللباس ؟

يقول الوشاء : « وأحسن الزى عندهم ماتشا كل وانطبق ، وتقارب واتفق^(٢) » . وفي هذا ذوق وبراعة ، وفيه تمدن وحضارة ، بل فيه قانون الملابس والأزياء الذي يتبعه مترفو باريس في هذا العصر . ساقّت المدنية ظرافتنا إليه ، قبل مئات عشر من السنين فأدركوا أن سر الأناقة في اللباس هو التطابق والاتفاق ، وإن شئت فقل الانسجام . فلا تنافر في الألوان ولا تباين في الأثواب ؛ فإذا لبسوا اتخذوا من الأثواب الجداد ، ولم يُجيزوا لبس ثوب مغسول مع ثوب جديد ، ولا ثوب دنس مع ثوب مغسول ، ولا بد من اختيار الثياب نقية اللون صافية ، غير مصبوغة بالزعفران

(١) الموشى ج ٢ ص ١٤٧

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٥

ولا مغموسة بالطيب امثلا يشنع منظرها أو يسطم طيبها ، ولأن
 هذه الثياب الصفرة ، وتلك المطيبات من لبس القيان والإمام^(١)
 فلنرجع إلى كتب اللياقة والأدب Politesse أو كتب
 فن العيش Savoir Vivre التي ألفت في هذه الأيام نجدها
 لا تخرج في هذا الباب عما ذكره المتظرفون ؛ فهي تقول : « حافظ
 ما أمكن على المشاكلة بين ألوان الثياب والتوفيق بين أجزائها ،
 ولا تتخذها مبرقة بالألوان المتنافرة ، ولا مؤلفة من رث وجديد
 ولا من طويل وقصير »^(٢)...

فإذا تركنا الجملة وأتينا إلى التفصيل ، رأينا ظرافنا يلبسون
 الغلائل الرقاق ، والقمص الناعمت الألوان ، المصنوعة من
 أرفع ضروب الحرير والكتان ؛ كالدبيقي^(٣) الذي ربما بلغ ثمن
 الثوب منه مائة دينار ، فإذا خالطه الذهب بلغ المائتين^(٤) .
 وكانوا يلبسون الدراعات ؛ وهي جبب مشقوقة من الأمام يأتون
 بها من البروجرد ، وهي بلدة بين الكرخ وهمدان^(٥) . ويتخذون

(١) الموشى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) آداب اللياقة لمحمد مسعود ص ٢٦ وانظر كتاب Je sais vivre

(٣) نسبة إلى « دبيق » قرية من قرى دمياط تنسب إليها الثياب

المنقلة والمعلم المذهب (أنظر المقرئى) وراجع مقالة الأستاذ « بيكر
 Becker » عنها في دائرة المعارف الإسلامية

(٤) المسالك والممالك لابن حوقل ص ١٠١ .

(٥) مرصدا الأطلاع ج ١ ص ١٤٨ .

الأثواب الملحمة أى المسدودة من قدام ، من الخرز والديباج ،
ويستعملون أزور القصب ، والمبطئات ، والأردية السعدية المحشاة
وطيالس نيسابور ، ومطارف السوس ، وأكسية فارس^(١) .

وان نستطيع أن نصف لك هذه الملابس وصفاً دقيقاً لبعده
العهد عنها ، فنحن لم نرها ، ولم ينته إلينا شئ على التفصيل من
وصفها ... على أن هذه الثياب كانت أنخر الملابس وأجودها .
فكانوا يأتون من كل بلد بما برع أهله في حوكة ونسجه : من
فارس وعدن ومصر والكوفة ونيسابور وهذان ... كما تحمل
المنسوجات في أيامنا من العراق وفرنسة وإنجلترا وغيرها .

فهذه العناية باختيار أجود الملابس والأثواب ، وتلك الرغبة
في انتقاء الزى منسجماً ؛ في ألوانه توافق ، وفي أجزائه تطابق ،
لما يشير الدهشة ويدفع إلى الإعجاب . ولئن ابتعدوا عن الصفرة
في الأثواب وتطييبها أمام الناس ، فقد أجازوا لأنفسهم في
الفصد والعلاجات ، ووقت الشراب والخلوات ، ليس الغلائل
المسكة ، والقمص المعنبرة ، والأزور المعصفرة والأردية الملونة .
وربما استعملوها لفرشهم ، ولبسوها ساعات قصفهم ، وتخففوا بها
في منازلهم . أما الظهور بها فمبيح أمام الناس^(٢) .

(١) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٤ .

وكان من تكامل ظَرْف الظريف ، إلى ذلك ، ظهور
برته ونظافتها ؛ فلا يتسخ له ثوب ، ولا يَدْرَنُ له جيب ، ولا
ينفتق له كم ، ولا يُرى في سراويله ثقب ، ومن العيب أن يمشى
الظريف بلا سراويل ، أو يمشى محلول الإزار^(١) .

أما رباطات السراويل والتكك ، فكانوا يتخذونها من
الابر يسم والحريز ، والقطن والخز ، وربما نقشوها بالأشعار ،
وزينوها بفرائد الأقوال .

١٨ — أما الخفافُ والنعال ، فكانوا يتخيرون منها النعال السود
والختمية ، وربما شركوا أسودها بأحمر ، وأصفرها بأسود . وكانوا
يعيبون لبس الخفاف الأحمر . أما الجوارب فكانت من الخز
والقز والمرعزي^(٢) . وقد كان الظراف في فرنسا حتى منتصف
القرن الثامن عشر يتخذون الأحذية السود ولها كعاب حمر .
وفي هذا ما يشبه إشراك الأسود بالأحمر عند ظرافنا^(٣) .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ ، وانظر إن شئت أن تعرف ملابس

الغريبين كتاب :

Histoire du Costume en France: Louis Blum, Hach. edit

(٣) أنظر مقالة للآنسة بول بايل في مجلة كرنفيرانسيا:

Melle Paule Bayle, L. Art au xvllle Siécle : Le Costume

P. 105 Conferencia No xlv Juillet 1939.

خواتيمهم

١٩ — وكانوا يتختمون بالعقيق والفيروزج وضروب الياقوت؛
 كالأبيض المشوب بزرقة كلون السماء^(١) الذي يبلغ ثمن الفص
 منه مائتي دينار^(٢)، وكالأحمر الذي يضيء كالكهربا . وكانوا
 يتجنبون خواتيم الذهب، لأنها من لبس النساء والصبيان
 والإماء^(٣).

طبيهم

٢٠ — أما طبيهم فعجيب؛ كانوا يتعطرون بالمسك المقشر،
 المذوب بماء الورد، ويستعملون العود المعنبر بماء القرنفل الخمر،
 والندى الذي يتعطر به الملوك، والعنبر المحمول من البحرين،
 والكافور الموضوع على الحجر، المخلوط بعبير المسك . وكانوا
 يتجنبون طيب النساء، لأنهن طيباً خاصاً بهن، ستنوّه به
 بعد حين . كما كانوا يتجنبون طيب الصبيان، ولا يستعملون
 من الطيب ما كانت رائحته شديدة السطوع^(٤).

إن نستطيع أن نصف هذه الطيوب . على أن من الممكن
 الجزم، مما لدينا من وثائق عن شأن الطيوب وندرتها، وغلاء
 ثمنها، بأن المسك المقشر، المذوب بماء الورد، أو العنبر المستعمل

(١) أنظر الجواهر في معرفة الجواهر للبيروني .

(٢) التبصر بالتجارة للجاحظ ص ١٠ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٤) الموشى ج ٢ ص ١٢٦ .

بماء القرنفل ، طيبوب^١ تفوق عطور « شيرامى » أو « سوار
دُبارى » أو « ليس دُفاله » ، المعروفة اليوم ، شذى وطيباً وثنياً .

٢١ — فإذا قاموا إلى طعام غسلوا أيديهم بالماء أو الطيب ، وربما
مسحوها بالأدهان العطرة لئلا يتمكن الزفر من مسامها^(١) . فإذا
جلسوا يأكلون ، فلا ضحك ولا ترثرة .

موائدهم
ومطاعمهم

وقد كانت ملوك^٢ فرنسة وأشرافها ، فى القرون الوسطى ،
أى فى الحقبة نفسها ، يتكلمون كثيراً وهم يأكلون ؛ يتحدثون
عن أقاصيص الحب والحرب والكلاب والعصافير^(٣) . وكان
ظرافنا يصغرون اللقم ، لا يملؤون بها أفواههم ، ولا يدهسون بها
شفاههم . وكانوا يترفعون عن الشجر والنهم ، ويتجنبون تدسيم
الرغفان ، ولطمع أصابعهم بالطعام . ولا يقطرون على أكفهم ،
ولا يعجلون فى مضغهم ، ولا يأكلون بجاذبي^(٣) أشداقهم .

وكانوا يتبعون نظام^٢ الأطباق ، كل^٢ لون من طعام فى
صفحة خاصة ، يُرفع طبق فيه ضرب^٢ من الطعام ويؤتى بطبق
آخر ، فيه لون آخر . وربما كان لكل رجل صفحة خاصة

(١) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) Funk-Brentano, Société au moyen âge P. 24

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٣٠ .

به^(١) على النمط الروسي ، ثم التركي ، الذي ساد أوربة في القرن الماضي . وربما جعلوا لكل طعام معلقة خاصة . بل ذهب بعض المغرقين في التطرف إلى ما هو أبعد وأعجب . فقد كانوا يتناولون كل لقمة بمعلقة ، لئلا يعيدوا المعلقة إلى فمهم بعد أن أخرجوها منه^(٢) . وكانوا يتخذون ملاعقهم من الفضة ، ومن الذهب^(٣) ، وقد يجعلونها من الزبرجد^(٤) ، أو من الزجاج^(٥) في حين ظل ملوك فرنسا وأشرافها يأكلون بأصابعهم حتى القرن الثالث عشر^(٦) أي القرن السادس الهجري . وقد يختص كل واحد بسكين ، يقطع بها ما يحتاج من الفاكهة واللحوم (آدم متز) .

أما المطاعمُ نفسها ، فقد تفتنوا في اختيار ما فيه طيبٌ ولذة: كانوا يرغبون في الرقاق الملفوفة باللحم ، أو البيض واللحم معا وهو ما يسمونه « البزما ورْد »^(٧) . ويأكلون السمك الطري

(١) بتيعة الدهر ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٣ .

(٣) طقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٨ .

(٤) الجماهر ص ١٦٥ .

(٥) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥٣ .

(٦) Funk-Brentano, Société au moyen âge P. 22

(٧) تفسير الألفاظ العاسية . لتيور باشا . مجلة المجمع العلمي

بدمشق المجلد ١١ ص ٣٢٧ سنة ١٩٢٣ .

والسنته^(١) ، وأدمغة الطيور^(٢) ، وكبود الدجاج^(٣) ، وألبان
الظباء^(٤) وغيرها . وكانوا يتجنبون أكل القديد ، وحسوة
المرق ، والاقتراب مما خبث رائحته وظهر نكهته ، كالقجل
والكراث والبصل والثوم ، ومما بشع شكله كالجزر والخيار
والقثاء ، واجتنبوا أكل الكلوة والطحال ، والثريد والقديد .
ثم بالغوا في نظرفهم ، وإن شئت فقل في تقززهم ، فأعرضوا عن
أكل كل ما فيه نوى . فكانوا يبتعدون عن التمر والزيتون ،
والشمش والعتاب ، والخوخ والإجاص . وهذا عندهم من
أكل العوام لا الخواص . وما كان الرمان أو التين أو البطيخ
لينفق عندهم . وقد حذروا من أكل الحبوب التي تهيج الأرياح
وتولد القرقرة والانتفاخ^(٥) .

وقد ذكر أبو الفرج خيراً يبين لنا ظرف العوام وظرف
الخواص في الطعام . فقد أرسل محمد بن ذى السيفين إلى عريب
يوماً طعاماً . فلما رآته أمرت فأنهب ، وأرسلت إليه طعاماً
ورقة فيها : « يا عجمي يا غبي ! ظننت أنى من الأتراك ووحش

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) نشوار المحاضرة للتنوخي ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) مطالع البدور ج ٢ ص ٥٩ .

(٥) الموشى ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

الجنـد ، فبعثت إلى بـخبز ولحم وحلواء . يا فـدتك نفسى ، قد
 وجهت إليك زلة من حضرتى ، فتعلم ذلك من الأخلاق ونحوه
 من الأفعال ، ولا تستعمل أخلاق العامة فى الظرف فيزداد العيب
 والعـتب عليك « فكشف محمد المنديل فإذا طبق ومكبة من
 ذهب وفيه زبيدية فيها لفتان من رقاق قد عصبت طرفيهما ،
 وقطعتان من صدر دراج مشوى^(١) .

٢٢ — فإذا فرغوا من طعامهم غسلوا أيديهم ، وصبوا عليها
 ماء الورد^(٢) ، أو العطر ، واستعملوا السواك : لأنه « يبيض
 الأسنان ، ويصفي الأذهان ، ويطيب النفس ، ويشد اللثة ،
 ويجلو البصر ، ويشهى الطعام » وقد وقف أطباء الفرنجة على
 هذه المزايا التى عرفها ظرافنا ، فقالت مجلة باريس الطبية :
 « بالسواك تصبح الأسنان بيضاً ناصعة البياض ، واللثة
 والشفتان جميلـة اللون . وإنه ليؤسف ألا تكون عنايتنا بأفواهنا
 نحن المتـمدنين ، كعناية العرب بها^(٣) » .

وقد استعملوا للمساويك الأراك ، والسكر ، وأصول السوس

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٨٥

(٢) أنظر الحضارة الإسلامية لآدم مـتر ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) آداب اللياقة ص ١٢ .

وجعلوا لها أوقاناً معلومات ؛ فأجازوا استعمالها بالغدوات
والعشيات ، في الصباح والمساء ، على الريق وقبل النوم ، وعند
الظهر ، وفي نهار الصوم . وكلما أغربوا في اتخاذ المساويك كان
ذلك أكمل لظرفهم . فإذا استاكوا وضعوا مساويكهم في
الطسوت اللطاف وأباريق الشبه الخفاف ، لحفظها من الغبار .
وربما اتخذوا لها لفائف من الحرير ، وعصائب من القز ،
ليصونوها عن الدنس ، بل ربما اتخذوا لها بعد ذلك كله
كراسى الآبنوس المصدفة ، والخيزران المشبكة ، يجعلونها
عليها (١) .

مجالس شرابهم

٢٣ — فإذا جلسوا للشراب تطيبوا بالمسك والعنبر والغالية .
وكانت العادة أن يلبسوا الثياب المورقات والمعصفرات مما حاكى
لونه الأزهار (٢) . وأن ينثروا الريحان في جنبات المجلس ، إن
لم يكن شرابهم في بستان أو رياض .

وقد كان الفرس والبيزنطيون يفعلون ذلك (٣) . ولعل
ظرافتنا أخذوا ذلك عن الفرس فيما أخذوا . ثم يسجلون

(١) الموشى ج ٢ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) أنظر مثلاً . الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٣ .

(٣) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

المجلس بالند فيتفاح أرجه وينتشر عبقة . وعندئذ يركع
 الإبريق للكووس ، ويطوف عليهم ظريف من الفلمان ؛
 أو غيداء من القيان ، بأكواب من الفضة والذهب والبلور ،
 ربما كانت مرصعة بالجوهر^(١) ، وربما كانت من أسرى
 الآنية وأجود الزجاج^(٢) . ثم يطرئون إلى غناء الجوارى
 والمسمعات ، ويشربون على الزهر والجمال ، وينشدون الشعر
 الغنائى الساحر ، ويتنقلون بمماوح البندق ومقشر الفستق ،
 والعود الهندى ، والسفرجل البلخى ، والتفاح الذى يحمل من
 الشام^(٣) . وربما شربوا على ضوء القمر^(٤) ، وربما شربوا على
 زهر الرياض يشوبه زهر الحدود . ولذوا بصهباء تبعث الشوق
 وتنسى الهموم ، وتريح من الأحزان والكرب ، فيبولون الهم
 على قول ابن المعتز ، ويحثون اللهو والطرب ، حتى يثملوا
 ويسكروا . ولكن كلما استيقظ الساقى من سكرته :
 جذب الزق إليه واتكا وسقام أربعا فى أربع

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٣٦٢ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٨ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) أنظر ديوان ابن المعتز ، وكتاب فصول التماثيل فى تباشير

السرور له ، فى آداب الشرب والسكر والمنادمة . والأغاني ج ٧ ص ١٦٨

الفصل الخامس

الحب واللذة

٢٤ — أما الحب فقد حَفِلَ به الظِّراف وسعوا إليه ، فكان داءهم ودواءهم ، وكان مقياس ذوقهم ، وعنوان ظرفهم ، ودليل أدبهم وفهمهم . وليس الظريف إلا من أَحَبَّ وأُحِبَّ ، فذاق طعم الهوى ومعاناة الجوى .

محاسن الحب

ولقد أقبل الظراف على العشق سراعاً ، لأن البطالة والترف والشباب تولد فراغاً في وجود الإنسان وتدفعه أن يملأ هذا الفراغ بالحب . وهذا كان شأن الظراف . فقد وجدوا في الحب ما تصفوه به الطباع وترق العواطف . فهو خلق كريم ؛ وأكرم بما يهذب النفس ، ويحيي القلب ، ويفتح الذهن ، ويشجع الجبان ، ويسخى البخيل ، ويطلق اللسان ، ويقوى الحزم ، ويشد العزم ، أن يُعنى به ، ويؤبه له . والأديب منهم إذا لم يعشق فليس بأديب ، وإذا لم يذق طعم القلق والأرق ، ويعرف ما في الحب من لوعات وروعات ، فلا يكون لطيفاً . ولقد وُشِيَ لرجل أن ابناً له أُحِبَّ ؛ فهش وبش وسُرَّ ، وقال :

« دعوه ! فإنه بلطف ويتظف ويظرف ^(١) » .

٢٥ — وقل أن تجد ظريفاً لم يؤثر عنه عشق أو هوى . محبوبان الطرفاء
فقد أحب مطيع « مكنونة » و « ظبية الوادي ^(٢) » وشاد
بمحاسنها ، وعشق حماد عجرد « جوهراً » ، وفتن بها ^(٣) .
وتيمت « سحر » مسلم بن الوليد فقال فيها أرق الغزل
وأشجاه ^(٤) . وعشق ابن المعتز فلك الهوى ، وسأل الناس أن
يعذروه ولا يعذلوه .

لا تلوموني على حب هذ سحرتني ، وإنما الحب سحر !
فلما اشتد به الوكاه نادى :

أَسَرَ الحبُّ أميراً لم يكن قبلُ أسيراً
فأرحموا ذلَّ عزيز صار عبداً مستجيراً ^(٥)

وأحبَّ العباس بن الأحنف « فوزاً » فوقف شعره كله
على حبه وغزله ^(٦) . وشبَّ أبو نواس « بجنان » ، وزعم أنه يحبها
ويهوها . ولم يخلُ خليفة أو أمير من حب يشغله ، وحبيب

(١) الموشى ج ١ ص ٤٨ .

(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ج ١٣ ص ٧٩ .

(٤) أنظر قصائده في الديوان .

(٥) الديارات : دير صر جرجس .

(٦) الأغاني ج ٨ ص ٣٥٢ وما بعدها و ج ١٥ ص ١٣٥ .

يأسره . كالمعتز والأمين والوائق والمعتمد حتى المأمون والرشيد .

عشاق الظريفات

٢٦ — أما الظريفات فقد ألقين بأنفسهن على الحب ، وسعين

في البحث عن الحبيب سعياً . فَعَشِقْنَ وَعُشِقْنَ . فقد هويت عليه

فتى ظريفاً وكنت عنه . وكانت تحب أن ترسل بالأشعار من

تختصه^(١) . وعشقت فضل الشاعرة سعيد بن حميد^(٢) . وكانت

عبيدة الطنبورية لا تخلو من هوى^(٣) . وأحبت عريب ، فتنة

العصر محمد بن حامد ، وأبا عيسى بن الرشيد ، وحاتم بن عدي ،

وغيرهم^(٤) وأخبار هؤلاء كثيرة مبثوثة في الكتب .

صفات هذا الحب

٢٧ — ونلاحظ أن هذا الحب الذي كان يملأ جوانح الظرفاء ،

قوى عنيف فياض . وأن العاشق لا يحب الحبيب وحده ، بل

يحب كل من يود الحبيب : أهله وجيرانه وخادمه . ولو كان

بعض هؤلاء مبغضاً إليه ، ينفر منه ويتعد عنه .

إني لأهوى جوهراً ويحبُّ قلبي قلبها

وأحب من حبي لها من ودَّها وأحبها

وأحب جارية لها تخفى وتكتم ذنبها

وأحب جيراناً لها وابن الخبيثة ربها^(٥)

أحب من علم من كان يسهم
حتى تلهو له من هوى الشعر والقر
أمر بالجو القاسم فأنه
لان صلب قاسم يشترط

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٦٣ (دار الكتب) .

(٢) الأغاني ج ١٧ ص ٦ ساسي و ج ٢١ ص ١١٧ .

(٣) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٥ .

(٤) الأغاني ج ١٨ ص ١٧٩ .

(٥) الشعر لحماذ مجرد .

فانظر كيف أحب جوهراً ، وأحب من حبه لها جارية
لها ، وودّ كل من ودها ، حتى ذلك البغيض إليه ، الذي يحول
دونه ودون لقائه بها ، صاحبها ، الخبيث وابن الخبيثة ، فكل
أولئك ، أحباء إلى القلب من أجل الحبيب ، بل أصبح ربُّعها
كله حبيباً إليه .

فيا ساكني أكناف دجلة كلُّكم

إلى القلب من أجل الحبيب ، حبيب !

فهذا الحب الذي يتعدى الحبيب إلى من يحيط به ، فيجعله
جميلاً في العين محبوباً في النفس ، هو حب رائع يذكّرنا بحب
الشعراء الابتداعيين Romantiques الذي ينتقل من الحبيب إلى
أودائه ، ثم إلى الأماكن التي زارها والمحال التي رآها . ثم هو حب
واسع لا حد له ، ولو جمع حب الناس أجمعين فوضع في كفة ،
وجى بحب المحب وحده ووضع في كفة ثانية ، لوزن حبه حبه
لو وزن العاشقون حبه لكان حبي بحبهم ^(١) يزن
بل أين حب العالمين من حبه ، إن قطرة واحدة منه تعدل
حب العالمين .

إني أحبك فاعلمي إن لم تكوني تعلمينا

(١) الشعر لمسلم بن الوليد .

حباً أقل قليلاً كجميع حب العالمينا^(١)

ولقد استنفذ الحبيب الحب في قلبه كله . فلم يُبق لغيره
فضلة ولا محبة .

أنا الذي لم تدع فيه محبتكم

فضلاً لغيرك من إنس ولا جان^(٢)

وهذا الحب لا يبقى في القلب ، ولكنه يخالط كل عضو
وكل جارحة لأنه بثَّ في بدنه وروحه .

بثتُ هَوَاكَ في بدني وروحي

فألف فيهما طمَعاً بـيـأس^(٣)

وما زال هذا الهوى يستولى على جسم الحبيب ويأسره ،
حتى نزع روحه ، وجعل الهوى مكانها .

سلبتُ روحي وأسكنت الهوى بدني

فصار فيه مكان الروح في الجسد^(٤)

اعترافات الحب

٢٨ — وملاحظة أخرى جديرة بالذكر ، هي أن ظرافتنا لا ينجلون

من التحدث عن حبهم ومغامراتهم . حتى ليخيل إليك تارة
أنك ترى عمر بن أبي ربيعة يقص عليك أحاديث هواه .

(١) الشعر لحمد مجرد

(٢) ابن المعتز ديوان ص ٥٤ .

(٣) فضل الشاعرة : أغاني ج ٢١ ص ١١٧ .

(٤) الشعر لمسلم .

وتحسب مرة أخرى أنك تسمع (اعترافات) مبهذبة تذكرك
 باعترافات (روسو) و (غوته) . فابن المعتز يُفضي إليك في
 ديوانه بأسرار غرامه ، وسكرات هواه ، في القصور بين الحسان ،
 وكيف شاق حبيبته فأتت إليه تسعى يسترها الظلام . وكيف
 زارها ولم يخش حدّ السيف . وتلمح ، وأنت تقرأ شعر مسلم ،
 الصلف والزهو بأن العيون تمشي إليه ، لجماله وحسنه . ويصف
 لك آخر كيف رأى حبيبته على ظهر الطريق ، فتجاهلته ،
 فغازلها ، فما تركها حتى فاز منها بموعد . وفي هذا كله تشعر
 بالطرافة وبالحلاوة . لأنها أحاديث فيها من سحر الحب والقلب
 الكثير .

٢٩ — وهذا كان شأن ظراف باريس ومتظرفاتها أيضاً ،

ظراف باريس
والحب

رغبوا في الحب واشتهوه . فقد اختارت (المركيّزة دُ راميويّة) زوار
 قصرها ممن كانت تود أن يكونوا عشاقها . وبحث (قواتور)
 عن الهوى في ذلك القصر وطمع في اصطيد جوليا ابنة المركيّزة .
 ونادى (لافونتين) — وكان يتظرف — أنه « يحب اللهو ،
 والحب ، والكتب ، والموسيقى » . وكانت (مدام دُ سيفينيّه)
 كعبيدة ، لا تخلو من عشق ، وتهوى ذات اليمين وذات الشمال .
 وغامرت (مدام دُ شاتيلون Mme de Chatillon) في الحب .
 فخدعت (الدوق دُ بوفور Duc de Beaufort) ، وحاولت إغراء

شارل الثانى . وكان مذهب (الآنسة دُ ليسبيناس) : لا مشورة
فى الحب ، شأن القيان عندنا . وتلهفت (مدام دو ديفاند) على
الحبيب ، والشيب يضحك منها . ولدَّ (لاروشفو كولد) بالحب
كثيراً ، ثم قنع بـمـدام د لافاييت . ولا محل لاستقصاء أسرار
هؤلاء هنا .

وقد بالغ المتطرفات ، عندهن ، فى تطلبهن الحب . حتى أن
بعضهن كن يرفضن الزواج الذى لم تسبقه مغامرات الحب
والهوى . فهزأ موليير Molière فى إحدى مسرحياته بهن . تقول
مادلون ، فى (المتطرفات الشواذ Ridicules Précieuses)
ما معناه : « لا ينبغى أن يتم الزواج قبل مغامرات أخرى .
ولا بد للخاطب لى يكون ظريفاً من أن يبرع فى إظهار أحلى
عواطف حبه وأرقها ، وأكثرها هيأماً وولهاً . ثم يلقى من
يحب فى كنيسة أو نزهة أو خلوة ، فيحدثها عن حبه ، فتظهر
الغضب ، فيسعى لمرضاها ، فترضى . وعندئذ تصفى إلى أحاديث
حبه وهواه . وهذا قريب مما كان يفعله القيان عندنا .

عشق الغلمان عشق القيان
٣٠ — ولا بد من التنويه بأن هوى الظراف كان مقسماً بين الغلمان
والقيان . فطائفة أغمرتهم لطافة الغلمان فأحبوهم ، كعبد الله بن

العباس الشاعر . وكالمعز والمعتمد^(١) . وكالحسين بن الضحاك
وأبي نواس . وطائفة أخرى آثروا القيان على الغلمان « لتكامل
ملاحتهن ، وعجيب شكلهن وبديع دأهن ، وملاحة سلامهن ،
وذكاء رواثهن » ، وحلاوة كلامهن ، وحسن مداعبتهن ، ومليح
مراسلتهن ، ومحبوب عتابهن . لا سيما إن شبن هواهن بالغيرة
على محبيهن ، والتدلل على متعشقيهن . فهن المالكات القلوب
السالبات العقول : «^(٢)

وعلى الرغم من معرفة الظراف أن القيان الظريفات شرك
لإبليس يقتل به ، حتى قال الجاحظ : « ولو لم يكن لإبليس شرك
يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان
لكفاه » ثم يستدرك فيقول « وليس هذا بدم لهن ، ولكنه
من فرط المدح . فليس يحسن هاروت وماروت ، وعصا موسى
وسحرة فرعون ، إلا دون ما يُحسِن...^(٣) » أقول ، على الرغم
من علمهن بذلك ، فإنهم قالوا : « إن هوى القيان ، على ما فيهن
من العيوب ، أسرع إلى النفوس ، وأوقع في القلوب ، وأعلق
بالأرواح وأخلق بالنجاح »^(٤) .

(١) أنظر كتاب الديارات (مخطوط) : دير مرمار ، دير العث .
والأغاني ج ٩ ص ٣٢١ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٦ .

(٣) رسالة القيان ص ٧٣ .

(٤) الموشى ج ٢ ص ١٠٢ .

وخلاصة القول إن الظراف حفلوا بالحب احتفالاً عظيماً ،
 وكان مذهب المتطرفات فيه يتلخص في كلمة قالتها إحداهن :
 « لا مشورة في الحب ! » ^(١) رغم انتشار السحاق عند بعضهن ، واشتهار
 أمره . فلقد أحببن الرجال . وأحب بعضهن بعضاً . وكانت بذل
 تقول : ألا لا أرى شيئاً ألد من السحق ^(٢)

٣١ — على أن هذا الحب الذي تبعه الظراف ، كان لا يدعو
 في أكثر الأحيان إلى ريبة ، ولا يسوق إلى فجور . لأن العفة
 من شروط الظرف ، ولا يكمل الظريف في ظرفه « حتى يكون
 عن الحرام عفيفاً » .

الحب سبيل
 اللذة الشهوانية

ولا كُنْ أناساً ، منهم ظرفاء الكوفة ، استهوتهم اللذة
 الجنسية . فأصبح الحب عندهم حباً شهوانياً *Amour - Sensuel*
 وتهافتوا على هذه اللذة تهافتاً عجيباً . ففريق أطلق لجسده
 العنان في التلذذ . فهو لا يبالي ألد من خلف أم لد من قدام .
 سواء أكان متعة لغيره ، أو تمتع بغيره ، ما دام جسده يلتذ وما
 دامت حواسه تنعم ... وفي هذا ما يذكركمنا بالكاتب الفرنسي
 (أندره جيد André Gide)

(١) مطالع البدور ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) أغاني ج ١٥ ص ١٤٠ .

وفريق ترفعوا عن تلك الدنيا ، ولكنهم تطفوا في فهم
 الحب ؛ ورأوا فيه وسيلة للذة الجنسية . فهم لا يقنعون بالنظرة
 والبسمة ، ولا يرضون بالحديث والنجوى ، ولا يفهمون للحب
 العذري معنى . فهو خرافة قد لها الناس بها زمناً . وإنما يريدون
 القبلة والشمة ، ولمس الأرداف والبطون ، وقطف رمان الصدور
 ثم ما وراء ذلك . فكانوا يجتمعون في نواديهم يشربون
 ويقصفون ، ويلهون وينادون :

وكلنا من طرب يطير أو يكادُ
 ولهونا لذيذ لم تلهه العبادُ
 إن تشتهي فساداً فعندنا فسادُ
 أو تشتهي غلاماً فعندنا زيادُ^(١)

فماذا تريد بعد هذا ؟ لقد حفل مجلسهم بما يُشتهى ، ولقد
 شربوا حتى ليكادون يطفرون طرباً . وإن لهوهم عجيب لم تعرفه
 العباد ، وعندهم بعد ذلك ما تشاء . فإن تشته النساء ، فعندهم
 النساء ، أو تشته الغلمان ، فعندهم زياد !

وقد يقنعون بالقليل ، ويمهد بعض لبعض السبيل . هذا
 مطيع ينادى :

ياريم فاشفى كبدأ حرى وقلبا شغفا

ونؤليني قبلة واحدة ثم كفى^(١)

ثم يتضرع ويرجو

قبليني سعاد ، بالله قبله واستليني لها ، فديتك ، نجله

فيدفع حماد سعاد هذه ويقول لها :

فأجيبى وأنعمى وخذى البذل وأطفي بقبلة منك غله^(٢)

أفرايت إلى هذا الإغراء . إنه إغراء لطيف قوى ،

تستجيب له المرأة . فهو يفهمها أن اللذة متبادلة ، وأنه يلذها إذا

قبلها ... كما تلذه إذا قبلته ، ثم يكون للقبلة ما بعدها . فهو

يطفيء لبيب الشهوة ، وهي تنعم وتلذ وتروى .

وهذا حمادُ عجرد يحدثك عن ليلة من لياليه ، فاسمعه ،

وتبين هذه الرنة التي تجدها في آخر بيت :

عندنا دهقانة حنت سانة ذات هميم

جمعت ماشئت من حسن ومن دل رخيم

في اعتدال من قوام وصفاء من أديم

لم أنل منها سوى غمزة كف أو شميم^(٣)

أفلا ترى الشهوة تقطر من هذا البيت الأخير ؟ ألا تسمع

إلى رنة فيها حسرة وفيها أسف . مسكين حماد ! لقد فاته من

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٨٨ .

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ٨٦ .

(٣) الأغاني ج ١٣ ص ٧٩ .

هذه الحسناء ذات الدل الرخيم ، والقوام المعتدل ، والبشرة
الصفافية ، أشياء كثيرة كان يطعم فيها ، فلم ينل منها سوى غمرة
كف وشمة !

دعوتهم إلى
الذات

٣٢—والحق أن الذات كانت عند عصابة منهم كل شيء

في الحياة : فابن المعتز يجهر ويقول :

فقد كانت دأبى جنة اللهو والصبيا

وما زلت بالذات والعيش لعباً^(١)

فهل تجد أجمل من قول هذا الأمير الظريف . لقد كان

دأبه اللهو ، وكان لعباً بالعيش وبالذات . ولقد سحر الحب

ابن المعتز ، وشاقته اللذائذ ، فكهل جسمه ، وضعف عزمه ، وما

زال قلبه صبيهاً ، على قوله ، فكان يصرع عقله بهواه ويردد :

وما العيش إلا لمستهتر تظل عواذله في شغب

يهم إلى كل ما يشتهى وإن ردد العذل لم ينجد^(٢)

وما كان مسلم بأقل منه صدوقاً عن الشهوات ، لأن

العيش عنده في سكرة الخمر وفتنة العيون .

هل العيش إلا أن تروح مع الصبي

صريع حميا الكأس والأعين النجل

(١) الديوان ص ٩ .

(٢) المصدر السابق .

فكان هائماً بالذات ، لا يصحو ولا يفيق
 لم أصح من لذة كلاً ولا طرب
 وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
 نفسي تنازعني الذات دائبة
 وإنما اللهو والذات من أربى
 وما عليه من ذلك ، وعنده ما يشتهي :

إن شئت غاداني صبح من الهوى
 وإن شئت ماساني غبوق من الخمر
 وهذا عبد الله بن العباس الشاعر الرقيق ، ينحو منحى
 فلسفياً فيرى أننا عارية في هذه الدنيا ، وأن الدنيا خالية فانية
 لا تبقى ؛ فلم لا تنهب الذات نهجاً قبل أن تنفى أعمارنا ؟
 نأخذ من الدنيا ولذاتها فإنما نحن بها عارية (١)
 أما الظريفات فكن يعطين محبين من أنفسهن
 ما يشتهون ، ويمنحنهم من وصلهن ما يرغبون . فهذه عريب ،
 وكانت تتهافت على الرجال ، لا تستطيع أن تصد نفسها عن
 الحبيب ، فلا تحفل الرقباء ولا تأبه للناس ، وتصبر حتى إذا
 أقبل الليل ، لفت ثيابها وجعلتها في فراشها ، توهم أنها فيه ، ثم
 تفر إلى صاحبها لتفعم بما تشتهي وتريد

(١) الديارات : دير قوطا .

قاتل الله عريباً فعلت فعلاً عجباً

صبرت حتى إذا ما أقصد النوم الرقيباً

فتدلّت لمحب فتلقاهُ حبيباً

جذلاً قد نال في الد نيا من الدنيا نصيباً

أيها الظبي الذي ته حر عيناه القـاوبا

والذي يأكل بعضاً بعضه حسناً وطيباً

كنت نهباً لذئاب فلقد أطعمت ذيباً^(١)

ولما صارت في قصر المأمون احتالت حتى أوصلت محمد

ابن حامد ، وكانت قد عشقته ، ثم احتالت في الخروج إليه ،

وكانت تلقاه في الوقت حتى حبلى منه^(٢) .

وهذه دنانير البرمكية كانت ترى أن المرأة بحاجة إلى أن

تُبَاشِرَ كثيراً^(٣) ، وهي بذلك تعبر عن حالة نفسية صادقة ، تتراءى

عند النساء كثيراً .

وهذه عُبيدة أيضاً ، وكانت رقيقة الطباع حلوة السمائل ،

(١) الأغاني ج ١٨ ص ١٧٩ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ١٨٢ .

(٣) الأغاني ج ١٦ ص ١٣٢ .

لم يعرف في الدنيا أعطر منها . اشتتهاها الناس ، ورغب فيها
الفتيان ، فحلت تكبتها وسمحت لهم^(١) لا تدافعهم عن شهوة
ولا تقصيههم عن منال ، ولم تبال ، في سبيل لذتها بأحد

٣٣ — ولعل من الواجب أن ننوّه بفضل الأديرة على هؤلاء
المستهترين من الظراف . فقد وجدت هذه العصابة في الديارات
المتدة على شاطئ دجلة ، بين التخييل والرياض والبساتين ،
كل ما تطلبه وتسعى إليه . من وجوه حسان ، ورواهب وغلمان ،
وشراب مبدول ، وطعام موفور ، وغناء طيب . والحق أن النصاري
بذلن أنفسهن وأموالهن بكرم وجود ؛ وكتاب الديارات للشابشي
يؤيد ما نقول ؛ فأغرى ذلك الشعراء والظرفاء ؛ حتى أن بعضهم
كان كثير التطرح فيها ، كعبد الله بن العباس الشاعر ، وأبي
جفنة القرشي . وربما بقوا فيها من أجل غلام أو حسناء .

أقمت بالدير حتى صار لي وطناً

من أجله ، ولبست المسح والصلبا

وصار شماسه لي صاحباً وأخاً

وصار قسيسه لي والداً وأباً

والله لو سلمت نفسي سمحت بها

وما بخلت عليه بالذي طلبا^(٢)

(١) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٦ .

(٢) الديارات : دير قوطا .

فضل الأديرة
على الظراف

وربما كانت مجالسهم في الديارات أشد قصفاً وأكثر طرباً
وطاب الوقت في الدير فرباطنا به عشرًا
وسقيتنا به الشمس وأخدمنا به البدر
ونلنا كل ما نهوا هُ من لذاتنا جهرا
تَصَابِينَا وَغَنِينَا وَأَرْغَمْنَا بِهِ الدَّهْرَا
فَتَكُنَّا وَتَهْتَكُنَّا وَمِثْلِي هَتَكَ السُّتْرَا (١)

والأمثلة كثيرة على تهافت الظراف ، أبناء الترف ، على
الذات . ولعل هذا الفصل وحده يحتاج إلى كتاب . وقد
أبنا عن ذلك بياناً مفصلاً في مقدمة كتاب الديارات الذي
حققناه . وإنما هذه لمحة موجزة تبين لك صحة ما ذهبنا إليه في
مطلع البحث .

(١) الديارات : دير باشهرا .

الفصل السادس

الهدايا

٣٤ — وحديثنا عن الحب ، يسوقنا إلى التحدث عن الهدايا .

فليس من يعنى بها كالعاشقين الظراف . والحق أنهم كانوا فى هداياهم ظرافاً أيضاً . فكان العاشق يهدى إلى المحبوبة الثياب ، والأزر ، والتكك ، والخفاف ، والعصائب المرصعة ، وخواتيم الياقوت ، ومخانق الكافور ، ومراسل القرنفل ، وما شاءت من مسك وعنبر وماورد ، وعود هندي وند ، وخمّلان وجداء ، وبط وفراريج ، ودجاج وفراخ ، ونبأج منضدة بالرياحين والفاكهة تتبعها صنوف الشراب ، وتتقدمها الدنانير^(١) .

٣٥ — وكان الظراف أنفسهم يتهادون . وكانوا يسرون بأشياء

ويتطيرون من أخرى . كانوا يتطيرون من الأترج ؛ لأن باطنه خلاف ظاهره . فهو حسن الظاهر حامض الباطن ، طيب

(١) أنظر رسالة القيان

الرائحة مختلف الطعم . ومن السفرجل لأن أول اسمه يبدأ بالسفر .
ومن الشقائق لأنها تبدأ بالشقا . والسوسن لأنه يبدأ بالسوء .
والياسمين لأن فيه اليأس ، والآس لأنه آياس ، وزعموا أنه
مؤاساة .

أما ما أحبوه فالرمان ، لأن معناه أن الوصل قد آن ، والبنفسج ،
لأنه فداء النفس . ولقد أكثروا من تفضيل التفاح ، وكانت
المحبة ترسل التفاحة إلى حبيبها وعليها أثر عضتها ، وهذه علامة
حب . ويقول آدم متز إن ذلك من عادات الرومان^(١) . وأعجبوا
بالورد ، وجعلوه رسائل الحب إلى الحب ، وربما جعلوا وردة
الحبيبة تميعة يشفى العاشق بها . ولكن بعض الظراف تطير منه
فسماه (الغدار) لسرعة زواله وتغيره . وأعجبوا بالخواخ وشكله
وشبهه بالحدود والوجنات ، لأنه يشاركها في السمرة والبياض ،
والأُدمة والتوريد ، والحرة والزغب ، وهو أطيب من التفاح
مَثَلًا ، لولا نواه الذي يشتمزون منه^(٢) .

على أنهم ما كانوا يفضلون على التفاح شيئًا . يقول الوشاء
« ولا يعدل التفاح شيء عند ذوى الظرف . فيه تهدياً أشجانهم

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ١٦٨ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٣٨ .

وعنده يضعون أسرارهم . وهو عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس ،
و بموضع الصاحب والجليس ، وليس في هداياهم ما يعادله . وهو
عندهم رهينة أحبابهم : إلى رؤيته يتطربون ، و برؤيته
يستبشرون ^(١) .

وكانوا يؤثرون رؤيته على طعامه ، وقد ينقشون عليه الشعر
الرقيق أيضاً . رؤيت تفاحة مكتوب عليها :

أنا للأحباب بالسـ سر وبالوصل رسول
أتهادى فأرق القلـ ب والقلب ملول
وعلى أخرى :

أنا جمراء دعوني للحب وحبيب

قبل ضرب السام كان العراقيون يرفخون جفارات على
البراقيا مكتوبة ^{بماء الذهب} « قلبي يشكلى العرام وليس لي من دواء »
« شفى السقام » واما هذه مما يدل على طرا
المرحمة وصياحها بآثامها

الفصل السابع

آداب اجتماعية

٣٦ — وقد كان لظرافنا آداب اجتماعية تشف عن تهذيب ،
وتنبيه عن خلق كريم ، وتوصي إلى كمال اجتماعي عظيم . كانوا
لا يزورون أحداً قبل إعلامه ، شأن الغربيين اليوم . وكانوا
لا يُدخلون أحداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء في كتابه ،
ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون إذا أُسرَّ إلى
سره ، ولا يتكلمون فيما حُجب عنهم . وكانوا أمراء مجالسهم
أينما وجدوا لظرافتهم ولطفهم . وكانوا أذكاء لا يجلسون في
مجلس يُنقلون عنه ، ولا يتصدرون في مكان بحيث يقامون منه .
وهم لا يتجشثون ، ولا يتمطون ، ولا يشبكون أصابعهم ، أو يمدون
أرجلهم ، أو يحكون أجسادهم ، أو يمسون أنفهم . فإذا تكلم
واحد فبتؤدة وهدوء ، وبإيجاز وبيان ، لا يعلو له صوت ولا
يرشش له بصاق .

فإذا مشوا في الطريق لا يسرعون ولا يتلفتون . ومن العيب
أن يشربوا من ماء الطرقات ، أو يأكلوا مما يُتخذ في الأسواق ،

ولا يصاحب واحدكم وضعياً ، ولا يُماشى رذيلًا ، ولا يشاتم
رفيقًا ، ولا يغمز بإنسان ، أو يسعى إلى سلطان ، ولا يخون عهدًا ،
أو يخلف وعدًا ، أو يماكس بائعًا ، ويشارط صانعًا .

وكان من أخلاقهم قلة الرغبة في الجفاء ، وحسن المؤاتاة
للأوداء ، ومساعدة الأصحاب والحلّان . يبشرون بمن لقوا ،
ويتفقّدون من فقدوا ، ويعينون بأموالهم الإخوان ، ويرحبون
بالضيّفان ، ويصفّحون عن المسيء ، ويبجلون الكبير ، ولا
ينسون الترحيب بالصغير^(١) .

ذلك طرف من آدابهم ، فيه من آداب الإسلام وآداب
الحضارة ، قايسه بآداب اللياقة في الغرب ، ترّ ما كان عليه
ظرافنا من نبل وكمال وتهذيب .

الفصل الثامن

— ٢ —

سيرة المتظرفات

رأيت في الفصول السابقة ما كان عليه الظراف في معاشهم
ولهوهم وعاداتهم، فلننضم إلى الظريقات، ولنذكر ما أهملناه في
تلك الفصول، ولنبين ما كنّ عليه من ذوق ونعومة ودلّ،
وما كنّ يصنّعه للتظرف والتجمل والتزين؛ هذه الأشاوى
التي لا يعرفن غيرها؛ لأنهن ميّالات إليها بغرائزنهن، راغبات
فيها منذ نشأتهن، ولأن عملهن الإرضاء كما يقول « فينيلون
Fenelon ^(١) ».

الأزياء
بين الابتكار
والتقليد

٣٧ — وقبل أن نبين أزياءهن يجدر بنا أن نذكر ما كان
لهذه الأزياء من أثر في العامة وأهل التظرف منهم. فقد كانت
ملايسهن (مودة) يقلدها النساء. والمودة على قول (تارد) في
كتابه (قوانين التقليد Les Lois de L'imitation) لا بد لها من
مخترعين أو واضعين : Initiateurs، ومن مقلدين متبعين :

(١) أنظر رسالته في تهذيب البنات :

Fenelon, Traité de L' Education des Filles.

Imitateurs . فكانت الظريقات هن المخترعات ، وكانت نساء العامة وبقية المتطرفات هن المقلدات . فما تكاد أميرة أو ظريفة أوقينة ، تبتدع زياً ، حتى تسارع إليه غيرها ، فيعم وينتشر ، لأنه زى جديد ، والجديد هو الجميل .

٣٨ — أماما لبسهن فكانت مماندر ونخر وغلا ثمنه وحسن حوكه . ملا بسهن

فما شئت من أردية رشيدية تارة وطبرية تارة ؛ وما أردت من شروب^(١) في أوساطها الزنانير ، ومن قصب ملون بألوان مختلفات ، وحرير موشى بالذهب ، ومقانع فاخرة من نيسابور ، وأزر رفيعة من خراسان ، وسراويلات بيض ، ومعاجر سود مسنبلات

٣٩ — وكانت الألوان التي يرغبن فيها تدل على ذوق ألوان الملابس

ونعومة ؛ فكان يعزفن عما صبغ منها صبغاً ، ولا يلبسن من الثياب الأصفر والأسود والمورد والأخضر والأحمر ، إلا ما كان جنسه التزريق والخضرة ، والتوريد والحمرة ؛ يتخذن كل أولئك من اللاذ والحرير والديباج والقز والخز والوشى ، مما كان اللون من أصله غير مكتسب . وكان اللون الأسود دليل الترميل والحداد ، وكذلك اللون الأزرق ؛ فقد كانت الأرامل يلبسن الحداد والأزرق . في حين كان اللون الأحمر ، آية الفرح والطرب

(١) الشروب ، واحدها شرب وهو ضرب من الثياب .

(٢) المعاجر واحدها معجر وهو ما يلتف به .

والسرور . وكن يختزن منه ما راقهن ، لأن الشديد الحمرة والتوريد من لبس النساء النبطيات والإماء . أما البياض فكان لباس المهجورات ؛ وربما لبسفه للتسلب والحزن أيضاً . فقد ذكروا أن وصيفاً لما أمر بإحضار جوارى المتوكل بعد قتله ، حَضَرْنَ ، وعليهن الثياب الملونة والمذهبة والحلى . وقد تزين وتعطرن ، إلا بمحجوبة ، فقد جاءت متسلية ، عليها ثياب بيض غير فاخرة ، حزنناً على المتوكل^(١) . واللون الأبيض هو الذى اتخذته أهل الأندلس للحزن والحداد^(٢) . ولعل فى الهجر عند أهل بغداد ما يستدعى الحزن ويوجب الحداد .

ولقد رغبن فى الوشى رغبة شديدة ، فانتشر بينهن . وكانت زبيدة ، وهى من الظرافة بمكان ، تلبسه دائماً . حتى صنع لها من الوشى الرفيع ما بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار^(٣) . ولبس الحرير الموشى بالذهب زى فنى ، وزبيدة تذكرنا (بمارى ليكزنسكا Marie Leczinska) زوج لويس الخامس عشر فقد كانت تلبس أثواب الوشى بالذهب دائماً^(٤) .

(١) أخبار الخلفاء للسيوطى ١٤٠ ، والأغانى ج ١٩ ص ١٣٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٥ ، وانظر شعر ابن شاطر السرقسطى

فى ذلك .

(٣) السعوى ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٤) Mme Dussane: Marie Leczinska, Reine mal mariée.

Conferencia No V Février 1939 P, 240.

وكن يتزملن برداء من جرير يسترا ثوابهن ، ويتمنطقن بمنطقة من ذهب . وكان بعضهن يتنقبن . وقد ذكر أبو الفرج أن متيم الهاشمية كانت لا تخرج إلا متنقبة ، وأنها أول من عقد من النساء في طراف الإزار زناراً وخيط إبريسم ، فكانت تجعله على رأسها فيثبت الإزار ولا يتحرك ^(١) .

وقد رغبن في جعل الكمام والجيوب مفتوحة واسعة . وقد تبدو سواعدهن وصدورهن وما يضعنه من حلي وتعاويز بين نهودهن .

زركشة الملابس
بالشعر

٤٠ — وكثيراً ما كن يعمدن إلى زركشة الملابس . وزركشة الملابس هذه شكل من شكل الفن ^(٢) . وقد وجدن في أشعار الغزل مادة زينة وتزويق فكن ينقشن هذه الأشعار الحلوة على العضائب ، وذيول الأقمصة ، وطرر الأردية ، وعلى الكمام والقلائس والمناديل ، وربما كتبنها على النعال والخفاف . وقد يجعلنها على جباههن وخدودهن بالمسك والعنبر والغالية ^(٣) .
وايس أجمل من أن ينظر الإنسان إلى الحسناء الظريفة ، فينزه مقلته في رياض محاسنها ، يرعى في وجهها الحسن ، ويطرب المرشاقة في الجسم ، ويعجب باللطافة والأناقة ، ويلذ طرائف

(١) الأغاني ج ٧ ص ٣٠٢ (دار الكتب) .

(٢) أنظر : Lalo : L' Art et la vie Sociale, P, 119.

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٦٢ .

الغزل الحلو الرقيق . وعندئذ يجدها ظرفاً للظرف ، ومخلبة للعقل ،
وفتنة للفؤاد .

وكانت هذه الأشعار تدور حول الحب والحبيب ، والهجر
والوصل ، والشكو والصفو ، والرقعة والقسوة ، والتحنان والتهيام ،
واللوعة والصبابة ، والفرح والسرور ، والشوق والدلال ، والصد
والجوى ، وما يجده المحبون الظرفاء ، والمحجوبات الظريفات من
انفعالات نفسانية وخطرات . ولقد رأيت أن الحب كان وسيلة
من وسائل الظرف ؛ فلم يكتفوا بحبهم هذا ، بل أظهروا آثاره
وأوضحوا دلائله . وكانت هذه الأشعار سرآة العواطف ، ومظهراً
لداء العصر (الحب) .

طائفة من
شعر الزركشة
والتزويقي
وما يدل عليه

٤١ — ولا بد من أن نسوق إليك طائفة منتقاة من هذا
الشعر . ذكر الماوردي قال : رأيت جارية ، ونحن عند محمد
ابن عمرو بن مسعدة ، لم أشك أنه عاشق لها لما رأيت من
حركاته إذا نظرت ، وسروره إذا نطقت ، وتهلله إذا غنت .
وكانت فوق وصف الواصف من الحسن والجمال . وعليها قميص
موشع ، ورداء معين . وفي وشاح القميص :

أغيبُ هنك بوْدٍ لا يغيره

نأى الحل ولا صرف من الزمن

تَعْتَلُّ بِالشَّغْلِ عَنَّا مَا تَكَلَّمْنَا

الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن !

وعلى طراز الرداء :

أقل الناس في الدنيا نصيباً محب قد نأى عنه الحبيب^(١)

وقد تستشف من وراء هذه الأشعار ما في ضمير المرأة ؛

لأن اختيارها دليل على قلبها . ولا شك أن هذا الشعر ، بعد

ذلك كله ، خدعة من خدعهن ، وإغواء من إغوائهن . فهذه

بنان جارية الخيزران ، تشكو طول البعد ، ونفاد الصبر ،

فتكتب :

ليس بي صبر ولا لي جلد قد نفي حبك عني جلدي

وراهي ، جارية الأحذب أولاً ، وجارية إسحاق أمير الغناء

أخيراً ، تغلن حرالمهوى في فؤادها ، واضطرام الجوى في جوانحها ،

فتكتب على وشاح قميصها^(٢)

إذا وجدت لهيب الشوق في كبدي

أقبلتُ نحو سقاء القوم أبردُ

هَبْنِي طِفْئَتُ يبرد الماء ظاهره

فمن حر على الأحشاء يتقد ؟ ! ..

(١) الموشى ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٦٩ .

وتلك جارية ظريفة أخرى ، تلتهمس رداء كله مسك ،
فتكتب عليه ، تستعطف وتبكي :

يا مالكا عذّبتني مجوره إذ ملكا
رفقاً بمملوكك ما يحل ذا الظلم لكا

٤٣ — أما ما نقّشناه على العصائب فكان أملح وأظرف .
العصائب

والحق أن العصائب نفسها كانت آيات فنية رائعة فيها الذوق
والجمال . وكانت عليّة بنت المهدي قد ابتدعت هذه البدعة
الحسنة ؛ فقد كان في جبينها فضل سعة تسمج به . فأرادت
أن تخفيه ، فأتخذت العصائب ، وكللتها ، وهي بنت الخليفة ،
بالدر والجوهر . فأحدثت شيئاً ما رؤى فيما ابتدعه النساء أچل
منه^(١) . وقلدتها الظريفات ، وأتخذت العصائب الرفيعة ، يكللنها
بالجوهر مرة ، وباللؤلؤ تارة . وينقشن عليها الشعر بالذهب طوراً .
وأملك تلاحظ كيف أخضع الظريفات (المودة) والفن في سبيل
إخفاء العيوب . ونحن نجد ما يشبه هذا في فرنسة في أواخر
القرن الحادي عشر . فقد كانت الملكات يخفين عيوبهن بطرق
كهذه ، فيتخذن القلائس ليخفين عظم رؤوسهن ، أو
الدنتيلات ليسترن ضيق صدورهن .

حدث علي بن الجهم قال : حضرت مجلس الظرفاء ،

(١) الأغاني ج ٩ ص ٦٣ (دار الكتب) .

نخرجت علينا جارية كأنها تمثال وعليها عصا به قد أرسلت لها
طرفين ، في صدرها مكتوب .

من يكن صباً وفيّاً فزماني في يديه
خذ مليكي بعناني لا أنزعك عليه

فوثب ابن الجهم حتى أخذ بطرفي العصا وقال : « أنا
والله صب ، وأوفي خلق الله حباً ^(١) . . . »

وقد ذكرت أن اختيارهن دليل على رأيهن وما يشتهين .
وفي المثال السابق والأمثلة اللاحقة دليل على ذلك . وقد ذكروا أن
طرفة جارية النطاف كتبت على عصابتها بالذهب « ليس في
الحب مشورة ^(٢) ! » وهذا ينبغي عن ميلها ، ويصح أن يكون
معبراً عن مذهب الظرف في الحب . ويذكرنا هذا القول ،
بالآنسة دُ ليسبيناس Melle de Lespinasse ، صاحبة اليهو
الأدبي المعروف . فقد كانت تقول : « ليس أقرب إلى العقل من
التلذذ في الحب » . وكتبت عنان باللؤلؤ : « إذا لم تستح فاصنع
ما شئت » ، وهذا يرمي إلى سيرتها ورغبتها في التلذذ . وكتبت
فرحة جارية ابن الجهم بالريش : « من صبر ظفر ^(٣) » .

(١) مطالع البدور ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٩ .

القلانس

٤٣ — وكن يتخذن القلانس اللطاف ، يضعنها على رؤوسهن للترزين ، ويجعلنها من الديباج في أغاب الأحايين ، وينقشن عليها الشعر الحلو الرقيق . فقد كتبت (علل) جارية محمد بن المأمون على قلنسوة لها من الديباج :

ما يمل الحبيب طول التجنى لبلائي به ، ولا الصد عني ؟
ونقشت « بنان » على قلنسوة جارية لها ، وكأنها كانت رسولا إلى الحبيب .

إن كنت خفتُ ولم أضمر خيانتكم
فالله يأخذ ممن خان أو ظلم

سماعة من محب خان صاحبه

ما خان قط محب يعرف الكرما (١)

٤٤ — وقد يضعن التيجان المكحلة بالجواهر والياقوت والذهب ، وربما صفن الذهب على شكل النرجس ، وشابوه بالفضة ، وجعلوه حول التيجان (٢) . وكانت هذه التيجان من أطرف الزينة . وكانت الظريفات المترفات وجواريهن يرغبن فيها . وقد أولت « حمئة » مرة للمأمون وليلة ، فأتاها ، فغنته

(١) الموشى ج ٢ ص ١٦٩ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٥٤٢ .

ثلاث قينات حسان توجن رءوسهن بتيجان ذهبية مكاللة
بالجواهر^(١).

الزنانير والخفاف

٤٥ — أما الزنانير ، فما كن ليرغبن في العراض منها .
وكن يتخذنها ليمدو هيف خصورهن ودقها ، وبروز
أردافهن وعظمها . وكان ذلك يستملح منهن . وربما زينها
بالأشعار . أما الخفاف فكان يجعلها من الديباج ، ويزوقها
بالجواهر والأشعار . وقد يجعان النعال من الفضة^(٢) . وكانت
زبيدة تزوق الخفاف بالدر والجواهر^(٣) . أما الشعر الذي كن ينقشنه
عليها فهو طريف لطيف . كتبت ظريفة على نعلها بالذهب :
لم ألق ذا شجن يبوح بحبه إلا حسبتك ذلك المحبوا

حذراً عليك ، وإني بك واثق

ألا ينال سوى منك نصيباً^(٤)

عود إلى
شعر الزركشة

٤٦ — وقبل أن تنتقل إلى أمور أخرى ، يجدر بنا أن
نذكر أن الأشعار التي كن ينقشنها ، كانت في أحيان كثيرة
وصفاً لهن ، وإعلاناً عنهن ، فقد ذكر الوشاء أنه رأى جارية
كأنها فلقة قمر ، خارجة من أحد الهياكل ، في كنيسة مار

(١) الاقليدي ص ١٠٣

(٢) الموشى ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) صروج الذهب ج ٢ ص ١٧٠ .

(٤) الموشى ج ٢ ص ١٨٢ .

ماريم في بغداد ، وفي وسطها زنار عليه بيتان .

زنارها في خصرها يطربُ وريحها من طيبها أطيبُ
 ووجهها أحسن من حلها ولونها من لونها أعجب
 وكانت شادنُ جاريةُ حنث قيمةُ جوارى المأمون تضع
 وقاية تجمع بين ذوائبها ، وعليها :

بيضاء تسحب من قيام فرعها
 وتغيب فيه وهو جثل أسحُم
 فكأنها فيه نهارٌ مشرق
 وكأنه ليلٌ عليها مظلم^(١)

٤٧ — وننتقل إلى التكلم عن شعورهن . فقد كن شعورهن
 يُعْنَيْنَ بها ويبذلن جهدهن في التصفيف والتسريح والترجيل .
 وكانت عريب تدع جواريزها يفسلن رأسها ، ويسرحن شعورها
 ثم يضعن فيه المسبك والعنبر^(٢) . وكان عند جعفر بن يحيى ، وزير
 الرشيد ، جارية خاصة تمشط شعور جواريه ، وتزينهن له كل
 ليلة^(٣)

(١) الموشى ج ٢ - ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) الأغاني ج ١٨ - ١٨٧ .

(٣) إعلام الناس للاتليدي ص ٨١ .

وكن يرسلن شعورهن ضفائر وذوائب وراء ظهورهن ،
 أو يجعلنها جدائل تتدلى على أكتافهن . وعندما أحب الناس
 الغلمان تشبهت القيان بهم ؛ فقصصن شعورهن ، ولبسن الملابس
 القصار ، وأبرزن أردافهن وسمين « الغلاميات » . وهذا ما فعلته
 زبيدة المأمون لما شاع حبه للغلمان^(١) . وكن يزرفن أصداعهن ؛
 فقد روى المأمون يوم الشعانين ، وبين يديه عشرون وصيفة
 مزترات ، قد زين بالديباج ، وزرفن الأصداع . فقال أحمد
 ابن صدقة فيهن :

ظباء كالذنانير ملاح في المقاصير

جلاهن الشعانين علينا في الزنانير

وقد زرفن أصداعاً كأذئاب الزراير^(٢)

وربما جمن الشعر بالجمة السكينية ، نسبة إلى سكينه

بنت الحسين^(٣) . وهذه الجملة شكل من (التواليت) كان

يستعملح . وكانت العباسية أخت الرشيد تفعل ذلك ؛ وتضع في

مقدم الجملة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر عيناها من الزمرد

وفي أجنحته فصوص من الياقوت مرتبة بين فصوص الماس .

(١) مسرج الذهب ج ٢ ص ١٧٥ (بهية) .

(٢) الديارات : دير الأعلى وانظر الأغاني ج ١٩ ص ١٣٨ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٧ .

طيبهن

٤٨ — أما الطيب فكان لهن طيب خاص . فكان لا يتطيبن بما يتعطر به الظراف . وكان لهن الكافور والقرنفل والزعفران ، والطور البرمكية ، وعطور الأزهار كالبنفسج والزنبق والبان^(١) . وكانت صناعة العطور التي تستخرج من الأزهار مزدهرة في إقليم سابور ، وهي تشبه الصناعة التي اختصت بها (الريفيرا) في فرنسا^(٢) .

٤٩ — وكان زيهن في الحلى لبس مراسل الكافور ، الجواهر والحلى ومخائق القرنفل ، والقلائد الذهبية . وكن يحملن المعازات المحرمة ، خوف العين . ويتخذن السبج اللطاف والحكك والكوهى والبلور النقي ، ويتخذن اللؤلؤ واللحى الأحمر والكارما الأصفر ، وأصناف الياقوت والجوهر^(٣) . أما خواتمهن فمن فصوص الزمرد والياقوت ، وكن يبتعدن عن خواتم الفضة والعقيق .

(١) الموشى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) الحضارة الإسلامية لأدم ماز ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) الموشى ج ٢ ص ١٢٨ . وانظر الجواهر في معرفة الجواهر ،

لليرونى ، تجد وصفاً دقيقاً لهذه الضروب من الجوهر . وراجع مقالتنا

عن « جواهر الخلفاء العباسيين » في مجلة المجمع العلمى العربى ج ١٢ ،

سنة ١٩٤١ المجلد السادس عشر .

وقد تفنن في التزين بالحلى ، وبرعن في إغراء الرجال .
فكن ربما جعلن الجواهر في صدورهن ، بل ربما جعلنها بين
نهودهن . وأكرم بجواهر تزهو بين جواهر ! حدث الحسين
الخليع قال : « فرأيت جارية تتثنى ، واسعة العينين ، أزجة
الحاجبين ، مفتوحة الجبين ، عليها قميص جُلنارى ، متقلدة
خرزاً من الذهب ، والجوهر يزهو بين نهديها ، وعلى صحن
جبينها طرة ، وقد غلب عليها الطيب ^(١) . »

وكان الخلفاء والظرفاء يتقربون بالجواهر والحلى إلى
الظريقات . فقد اشترى للرشيد جوهر بمائتي ألف دينار فوهبه
لدنانير البرمكية ^(٢) . وأغضب الواثق فريدة يوما فاسترضاها بحق
فيه عقد جوهر ما رؤى مثله لخليفة ^(٣) .

وقد بلغ من إعجاب الظريقات بالجواهر ورغبتهن فيها أنهن
اتخذن ثياباً كلها من الدر ، كما فعلت زبيدة ؛ فقد أمرت أن
يُتخذ لوصائفها ثياب من الدر المثقوب بالتصليب ^(٤) ولم يسمع عن

(١) الاتليدي ص ٥٧ .

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٥٤٤ .

(٣) عيون التاريخ لابن شاكر (مخطوط) ج ٦ سنة ٢٣٢ .

(٤) الجواهر في معرفة الجواهر ص ٥٨ .

امرأة أنها فعلت فعل زبيدة هذه من قبل ولا من بعد .

احتفالهم
بالأزهار

٥٠ — وأمر آخر ذو شأن هو احتفالهم بالأزهار . فكن

يتزين بها ، يجعلونها أكاليل على رؤوسهن ، ويضعنها فوق
نهودهن ، وقد أعجبوا منها بالبنفسج والورد خاصة . وكانت
متيم يعجبها البنفسج جداً . وكان عندها آثر من كل ريحان
وطيب ، حتى أنها من شدة إعجابها به كان لا يكاد يخلو من كمها ،
ولا تراه إلا كما قطف من البستان^(١) .

ولقد رأيت كيف كانوا يؤثرونه في الهدايا على غيره من
الزهر ، ويقولون إنه داليل الود والحب .

أهدت إليه بنفسجاً يسليه تنبيه أن بنفسها تفديه
فارتاح بعد صباية وكآبة ورجا بحسن الظن أن تدنيه
وأما الورد ، فقد أفرطوا في نعت حسنه وتفضيله . فكانوا
يفرشون المجالس بفرش مورّد ، ويلبسون الشياب من لون الورد ،
ويتهادون الورد ، ويشربون على رائحته وشكله ومنظره . كل

(١) الأغاني ج ٧ ص ٣٠٦ .

ذلك لصفاء لونه ، وسطوع طيبه ، ونعومة منظره (١).

* * *

التزين
وفن التجميل

٥١ — نستنتج ، بعد هذا كله ، أن ظريفتنا سعين في التزين الفني لإظهار محاسنها وإخفاء عيوبهن . فلبسن الوشي الثقيل بالذهب ، وتحلين بالجواهر واليواقيت والدرر ، وتعطرن بعطور الأزهار ، وفتن عيون المحبين بالأشعار ، وزركشن ملابسهن ، وزوقن ما يحيط بهن .

على أن كل ما ذكرنا ليس بشيء أمام تجميلهن . فقد ازدهر فن التجميل أي ازدهار . وكان فيهن من تنقطع إلى التزين والتجميل ، وقد مر بك أنه كان لجعفر بن يحيى امرأة تزين له جواريه كل ليلة ، ومثل هذه كان يوجد في كل قصر . وليس أحب للمرأة من التجميل ، ولو كانت جميلة . ولا تخلو واحدة من ميل له ومحبة . لا سيما إذا كان وسيلة لإظهار مفاتها وإبداء محاسنها . وقد برع النخاسون ، ونبغت القيان ، في التجميل . وها أنذا أنقل لك نصاً من رسالة لابن عبدون البغدادي تبين لك ما بَلَغَ منه فيه من براعة ومهارة . يقول : « وكم من سمراء كعدة بيعت بصفراء مذهبية / وكم جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمروا

(١) أنظر مقالنا عن « الورد والخلفاء العباسيون » في المقتطف :

الجزء الثاني من المجلد الثالث بعد المائة يوليو ١٩٤٣ .

الحدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقة . وكبروا الفقاح الهزيلة ،
وأعدمو الحدود شعر اللحى ، وأكسبوا الشعور الشقر حالك
السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ،
ودملجوا السيقان المعركة ، ورطلوا الشعور المرطبة ، وأذهبوا
آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة ... وطولوا الشعور
بوصلها من أطرافها بشعور من جنسها . وكانوا يزيلون روائح
الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما . ويجلون
الأسنان بالسواك بالأشنان والسكر وسحق الصيني أو الفحم
أو الملح المدقوق . وكانوا يزيلون الشعث في أصول الأظفار
بغسلها بالخل والعسل ، أو دهن الورد واللوز المر .

« وكن يخفضن حواجبهن وأطرافهن ، ويصبغن بصبغ أحمر
شفاههن^(١) . فإن كانت الجارية بيضاء ، فبالخضاب الأحمر ،
وإن كانت صفراء فبالأسود . ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة
في كشف الضد بضده^(٢) . »

أرأيت إلى هذا التجميل . إنه فن قائم بنفسه ، لا ينقصه
شيء . وماذا يعوزه وقد حوى كل شيء ، واحتال على كل شيء .

(١) مختصر تاريخ العرب لمير علي ص ٣٨٩ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٢٧١ ، نقلا عن

رسالة لابن عبدون البغدادي المتطبيب مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين

فجعل السمرء صفراء ، والعين الزرقاء كحلاء ، وحمر الحدود ،
 وسمن الوجوه ، وصبغ الشعور . . حتى الشعث في أصول الأظفار
 أزالها ... والحواجب خضبها ... ولا بد أنك لاحظت هذه
 العناية الكبرى في التحايل على إظهار الجمال وإخفاء العيوب
 وإبداء المفاتن . . ولعمري إن هذه العناية لا تقل عن عناية
 النساء بالتجميل في القرن العشرين . فلم يدعوا شيئاً إلا جملاه ،
 من الشعور إلى السيقان ، ومن الهزال إلى السمن ، ومن القباحة
 إلى الصباحة . فلا غرو إن كان للمتظرفات حظ وافر من الجمال ؛
 ولا عجب إن فتن القلوب وأسرن العقول ؛ فتهافت عليهن
 الخلفاء والأمراء والشعراء والأدباء .

الفصل التاسع

أدب الظرفاء

خصائص
هذا الأدب

٥٢ — لا بد ، قبل أن تفارق ظرافنا ، من أن نستمع
إلى أشعارهم ومراسلاتهم . وسترى في هذه الأشعار ما رأيت في
حياتهم من يسرٍ وطرافة وخفة وجمال وزرٍ كشة وتميق . لأن
سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ودماثة الشعر قد تكون بقدر
دماثة الخلق ، ورقة الكلام أكثر ما تأتيك من اللطيف
الظريف ، أو الترف الذواق ، أو الغزل المتهالك . وأصحابنا
كانوا مترفين ، ظرفاء ، غزلين . فإذا قرأت شعرهم ، رأيت
ألين الكلام ، بأرشق الأوزان ، وآنق الألفاظ .

الزر كشة
والتزويق

وقد دفعهم حب التزويق ، إلى زركشة الشعر بالألفاظ
الحسان ، والصيغ الرشيقات ، والرغبة في البديع ، وما فيه من
جناس ومقابلة واستعارة وطباق .

المعاني الغريبة
والمواطف
المرهقة

وساقهم حب الطريف إلى صيد المعاني اللطاف . وقد
تراها غريبة عنك ، وقد تراها بعيدة منك ، فيها رهافة في
الشعور لا توصف ، ونعومة في الحس لا تُعرَف . ولكنها ،

على كل حال ، حسنةٌ في المسمع ، لطيفةٌ الموقع في القلب . ولقد
 عُنفوا أيضاً بتنميق معانيهم بالصور الحسية تارة والمعنوية أخرى
 وصبغوها بأصباغ شتى وألوان مختلفات ، ولم ينسوا الطبيعة ،
 فلمهم فيها أوصاف فائتات ، فهي تشوق وتروق . وبذلك زوّقوا
 المبني ولم يهملوا المعنى .

الصراحة
والانطلاق

ورغبتهم انطلاقتهم من القيود إلى الجهر بعواطفهم ،
 والتحدث عن ذكرياتهم ، والاعتراف برغباتهم ، وتبيين
 ما تهفو إليه نفوسهم ، من الشهوات والملاذات ، وما تشمئز
 منه من السدود والقيود .

وخلاصة القول أن أدبهم كان صورة لألوان من العواطف
 والانفعالات الوجدانية الغريبة في بعض الأحيان ، واللطيفة في
 أحيان أخرى التي كانت تهيم على نفوسهم ، ولما يصحبها
 من تغيرات جثمانية ظاهرة ، بألفاظ رقاق ناعمت ، تنسجم مع
 تلك العواطف ، ذات موسيقى فيها لين ورقة وعطف . وكان
 أيضاً كحياتهم نتاج تهذيب ، وثمره حضارة ، وجناء لهو ،
 ورُبَّع ترف .

وهاك نماذج منه تبين ما ذهبنا إليه :

مغازل أُسر

حسبي وحسب الذي كلفتُ به مني ومنه الحديثُ والنظرُ
 أو عضةً في ذراعها ولها فوق ذراعي من عضها أثر
 أو لمسةً دون مرطها بيدي والبابُ قد حال دونه الستر
 والساقُ برأقةً مخلصها أو مصُّ ريقٍ وقد علا البهر
 واسترخت الكفُّ للعراكِ وفاقا ات إيه عني، والدمع منحدر
 إنهضْ فما أنت كالذي زعموا أنتَ وربِّي مغازلٌ أشيرُ
 قد غابتِ اليومَ عنك حاضنتي واللهُ لي منك فيك ينتصر
 ياربُّ خذْ لي فقد ترى ضرعي من فاسقٍ جاء ما به سُكر
 أهوى إلى معضدي فرضضه ذو قوة ما يطاق مقتدر
 كيف بأُمِّي إذا رأت شفتي أم كيف إن شاع منك ذا الخبر^(١)

بشار

إذا لم يزرني ندمانيه خلوتُ فنادمتُ بستانيه
 فنادمته خضيراً مؤثقا يهيجُ لي ذكر أشجانيه
 يقربُ لي فرحةً المستلذ ويبعدُ همِّي وأحزانيه
 أرى فيه مثلَ مداري الظبي تظلُّ لأطلالها حانيه
 ونور أقاحٍ شتيت النبا ت كما ابتسمت عجباً غانيه

وترجسة مثل عين الفقاة إلى وجه عاشقها رانيه^(١)

كيف يكون النوم ؟

قفا خبراني أيها الرجلان عن النوم إن الهجر عنه نهائي
وكيف يكون النوم أم كيف طعمه
صفا النوم لي إن كنتما تصيفان

أيقظوني ورفدوا !

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتي إذا أيقظوني للهوى رقدوا

الشغل للقلب

أغيب عنك بودي لا يغيره نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عن — ما تكلمنا
الشغل للقلب ليس الشغل للبدن^(٢)

الحب والخلور

يا أيها المعمود قد شفقك الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود

(١) الشعر لابن المعتل .

(٢) العباس بن الأحنف .

يا عاذلي كفا	فإني معمود
قد أقصدت فؤادي	خمسانة خريد
هجرانها قريب	ووصلها بعيد
كلامها خلوب	إلى الصبي يقود
وطرفها مريض	ولحظها صيود
وقدها ممشوق	منعم مقود
كانه قضيب	في غرسه يמיד
من لام في هواها	فتصحه مردود

يا سحر واصليني	فلإني عميد
جودي لمستهام	عذبه السهود
نسهر من هواكم	وأتم رقود
وفي الفؤاد نار	ليس لها خود
أبادني هواكم	والحب لا يبيد
والحب لي نديم	والحب لي قعيد
حتى متى مناي	لا ينجز الموعد
وسادة سراة	ما فيهم مسود
يُسَقَوْنَ صفو راح	لذيذها موجدود
مدامة لها في	خدودنا توريد

كأنَّ شاربِها في سوقهم قيودُ
 حتى انثنت عيونُ واحمرَّت الخدودُ
 في مجلسٍ نضيرٍ يزينه الشهودُ
 غطارف كرام بيض الوجوه صيدُ
 من فوقهم أطيَّارُ صياحها تغريدُ
 وتحتهم جنانُ نباتها نضيدُ
 وعندهم دِفَافُ وزامرٍ وعودُ
 خاضوا ببحر قصفٍ تجري له مدودُ
 حتى انتشوا وقاموا مجلسهم محمودُ
 من نال مثل هذا فإنه سعيدُ
 هذا الخلود عندي لو دام لي الخلود !

ظبي

ذاك ظبي تحير الحسن في الأر كان منه وحل كل مكان
 عرضت دونه الحجال فما يلقاك (م) إلا في النوم أو في الأمان

زنبى

وإني لأخلو مذ فقدتك دائبا فأنقش تمثالا لوجهك في التراب

فأسقيه من عيني وأشكو تضرعاً
إليه بما ألقاه من شدة الكرب
فوالله ما أدري بما أنا مذنب
إليك ، سوى الافراط في شدة الحب^(١)

فبدر

وقد أنهبني فاه وولّي ، وهو عجلان
فقل في مكرع عذب وقد وافاه عطشان
وضم لم نحسنه له في الريح أغصان
كما ضم غريق سا بجاً والماء طوفان
وما خفنا من الناس وهل في الناس إنسان !

بدر

والبدر في أفق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

نومة قوادة

وكم نومة لي قوادة أتت بالحبيب على بعده

ليلة فراء

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة كأنها فضة ذابت على البلد

أصبر

وجلاجل رعد من بعيد كأنه

أمير على رأس اليفاع خطيب^(١)

ليلة

وليلة من الليالي الزهرى قابلت فيها بدرها بيدر

لم تك غير شفق وفجر

حتى تولت وهي بكر الدهر^(٢)

ذبت من الشوق فلو زج بي في مقلة النائم لم ينتبه^(٣)

أحبك حباً لو يفض يسيره

على الخلق مات الخلق من شدة الحب

وأعلم أنى بعد ذاك مقصّر

لأنك في أعلى المراتب من قلبي^(٤)

(١) الشعر لابن المعتز .

(٢) عبد الله بن العباس .

(٣) الخبز أرزى .

(٤) محمد بن أبي أمية .

من أسفل ومن عل

نزلت بمرما جرجس خير منزل ذكرت به أيام لهو مضين لي
تكنفنا فيه السرور وحفنا
فمن أسفل يأتي السرور ومن عل^(١)

فم بنا!

قد بدا شبهك يا مولا ي يحدو في الظلام
قم بنا نقض لبانا ت التزام والمشام
قبل أن تفضحننا عود ة أرواح النيام

صلة الحب

علم الجمال تركتني في الحب أشهر من علم
ونصبتني يا منيتي غرض المظنة والشهم
فارقتني بعد الدنو فصرت عندي كالحلم
ما كان ضررك لو وصد ت تخف عن قلبي الألم
برسالة تهدينها أو زروة تحت الظلم
أولاً ، فطيني في المنا م فلا أقل من اللعم
صلة الحب حبيبه الله يعلمه كرم^(٢) !

(١) النميري .

(٢) فضل الشاعرة .

ذلك طرف من شعرهم ، أما نثرهم فيظهر في رسائلهم
ومكاتباتهم . وقد كانوا يعنون بها ويتظرفون فيها . فيجعلونها
من بديع الحرير الصيني والديبقي ، وينقشونها بالذهب والمسك
والزعفران . ويطيبونها بالعنبر والغاليلة ، ويبالغون في لطاقتها
وأناقتها ، لاسيما أهل الهوى منهم ؛ فقد بلغوا في ذلك كل غاية ،
وتجاوزوا كل وصف . وربما ضمنت العاشقات كتبهن خصالاً
من شعورهن ، أو قطرات من دموعهن ، أو عطراً من عطرهن
ليزدن في أنس الحبيب ، وينبئنه بحالهن وعذابهن .

وهاك نماذج قصيرة من المكاتبات والرسائل :

قال ابن المعتز : كتب إلى النخعي يستبطن رسولي ،
ويعتذر من تأخره عني ، ويذكر أنه اشتغل بعارة بستانه ،
فأجبتة : « أما ما ذكرت من تأخر رسولي عنك للسؤال عن
خبرك في هذه الأيام ، والتفقد لك ، فإني رأيتك قبلت قول
القائل : « خذ اللص من قبل أن يأخذك » . وإلا فما قصرت
في السؤال عنك والبعثة إليك ، ولكن ما أقول لمن نكس
عليه فلم يعده ، واشتاق إليه فلم يزره ، مشغلاً بطروق الحانات
والديارات ، وركوب الزلاّلات ، ومغازلة القيان ، ومعاقرة ابنة
الدنان ، جامعاً بين طرفي نهاره بغبوق لا يهدأ سامره ،
وصبوح لا يفترباكره . في عسكرى لهو ، واحد يخطب الماء
بمجاديفه ، وآخر يقرع الأرض بخيله ووجيفه » .

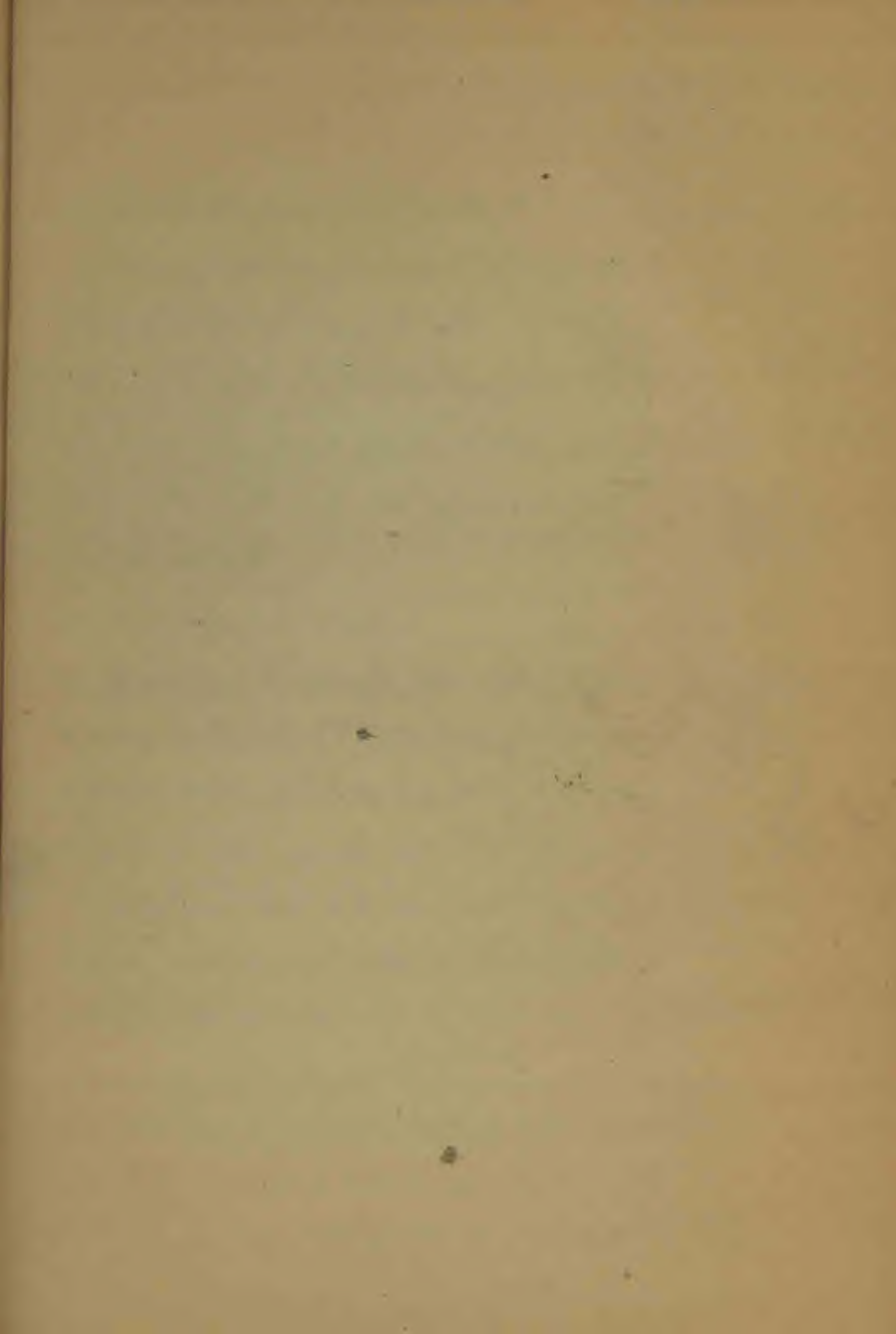
وكتبت « عريب » إلى أحد أصدقائها :

« بنفسى أنتَ وسمعى وبصرى ، وكلُّ ذلكَ لك .
أصبح يومنا هذا طيباً ، طيب الله عيشك ، قد احتجبتُ
سماؤه ، ورقَّ هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، فكانه أنتَ فى
رقَّةِ شمائلك ، وطيب محضركَ ومخبرك ، لا فقدتُ ذلكَ أبداً
منك ، فبعثتُ إليك ببدعةٍ وتحفة ليؤنسك ، وتسرى بهما ،
سرك الله وحفظك . »

وأرسلتَ ظريفة إلى صاحبها تقول :

« جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت إلى غير
« مذاهب الظرفاء . وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن
« وفائك ؛ وتحقيق ظن مؤملاك أولى بك من الوقوف على
« تجنبك . »

« فأجابها : أنا من ودك على أحسن عهدك ، ومن الأمل
« لك على أضعاف ما عندك . ولقد استوحشفا من فقدك ،
« فاجعلى لنا حظاً من أنسك . »



الشَّحَاذُونُ



الفصل الأول

الفقر والكدية

٥٣ — كانت بغدادُ في العصر العباسي موطنَ الترف
وَجُجَّتْ الغنى لطائفة من الناس ، نالت الحُظوة عند الخلفاء
والوزراء ، من الولاة والأمراء ، والشعراء والمغنين ، والملَّهين
والندماء . وكانت بلدة العوزِ والإقلال ، والفقرِ والإقتسار ،
لطائفة أخرى من العوام لم تذق هناءة النعيم ، ولا عرفت لذَّة
اليسار . فبينما كان أوائلُ المترَفون ، يهنتون بعيش مونتق ناعم ،
كان المعوزون يعانون ذلَّ الفقر وألم السؤال . فكانت دار
السلام والملك :

تُصلح للموسر لا لامرئٍ يبيتُ في فقرٍ وإفلاسٍ^(١)

ولقد رأيت في سيرة الظراف مبلغَ ما وصلَ إليه الترف
والغنى ، وسمعت إلى ما يطرب ويُعجب ، فاصغ الآن إلى أنغام
جِدَادٍ ، لا يُشاكلُن نغمات المزاهر ، ولا يحاكيَن رنات الأعواد ،
ولكنَّهن فتراتٌ محزنات ، فيهن زفرات الجائعين ، وحسراتُ
البائسين ، وأنينُ الفقراء .

(١) معجم البلدان ، مادة بغداد ج ١ ص ٦٩٣ .

أبو الشمقمق
وأبو فرعون

هذا أبو الشمقمق ؛ يجوع فلا يجد من يطعمه ، ويعرى
فلا يلقى من يكسوه ، فيدع عياله يأكلون خبز الغضارة ،
ويشربون بول الحمارة .

إن العيال تركتهم بالمصر خبزهم الغضاره
وشرا بهم بول الحمار (م) مزاجه بول الحمارة (١)
ثم ينادى :

ولقد أهزئت حتى تحت الشمس خيالي
ولقد أفست حتى حل أكلى لعيالي
من رأى شيئاً محالاً فأنا عين الحال (٢)

هذا أبو فرعون
وهذا أبو الشمقمق
وهذا أبو فرعون
وهذا أبو الشمقمق

وهذا أبو فرعون : يحمل صبيته الصغار ، سود الوجوه ،
خضع البطون عرى الأجسام ، يطوف بهم في الأسواق ، يسأل
الناس أن يتولوا أمره ويشبعوه .

وصبية مثل فراخ الذر سود الوجوه كسواد القدر
جاء الشتاء وهم بشر
حتى إذا لاح عمود الفجر وجاءني الصبح غدت أسرى
وبعضهم ملتصق بصدري وبعضهم منعجرج بحجري
أسبقهم إلى أصول الجذر هذا جميع قصتي وأمرى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٥٤ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٤

فأرحم عيالي وتولّ أمرى أنا أبو الفقر وأمّ الفقر^(١)

فما أبرعَ هذا الوصف الدقيق ! إنها لوحة رائعة ما كان
أخلفها أن ترسم بريشة رافائيل أو رامبراند . وما أدق قوله :
« وبعضهم ملتصق بصدري ... » إن فيه حسرة وألماً ،
وفيه بكاء يبعث على الإشفاق ...

وها هو ذا أبو العتاهية يشكو غلاء الأسعار ، ونزرة
المكاسب ، وفشو الضرورة :

مَنْ مَبْلَغٌ عَنِ الْإِمَامِ (م) نَصَائِحًا مَتَوَالِيَةً
إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ أَسْعَارَ الرِّعْيَةِ غَالِيَةً
وَأَرَى الْمَكْسَبَ نَزْرَةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَةً^(٢)
فلا عجب بعد هذا كله أن يلجأ الناس إلى الكدية^(٣) ،
هذه المهنة التي كان ساسان أول من وضع أساسها ، يحتالون
بها على المعاش .

والحق أن أولئك الفقراء الذين ضمّهم بغداد والأقاليم ،
كانوا كثيرًا . ولكن أبا العتاهية ، وأبا الشمقمق ، وأبافرعون ،

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ١٧٩ ، وهذه الأبيات رواية
أخرى في كتاب « الورقة » المخطوط .

(٢) الديوان .

(٣) الكدية في اللغة حرفة السائل الملح . يقال أكدى إذا ألح في
المسألة ، وهو مكد أي سائل شحاذ ، وهم المكدون أي الشحاذون .

نَفَسُوا كَرَبَهُمْ بِأَيِّياتٍ مِنَ الشَّعْرِ الْبَاكِ خَلَّدَتْ ذَكَرَهُمْ -
أَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَقَدْ قَضَوْا تَحْتَ نِيرِ الْفَقْرِ ، وَحَسِرَ أُنْتَهُمْ تَقَرَّدَ فِي نَفْسِهِمْ ،
فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمْ أَحَدٌ ، وَلَمْ يَذْكُرْهُمْ إِنْسَانٌ .

انتشار الكدية
في بغداد وباريس

٥٤ - ولم تكن الكدية منتشرة الانتشار العظيم قبل
زمن المهدي . على أنه كان خلق من ذوى الزمانة والعاهة
يقفون على الجسر زمن المنصور فيسألون الناس . وراهم رسول
ملك الروم فعاب على المنصور أمرهم ^(١) . فلما ترف أناس ،
وجمعوا الأموال ، افتقر أناس آخرون ، فلم يجدوا مثل الكدية
مهنة تدر عليهم الأموال ، وتكفيهم عناء الأعمال .

وأخذ الشحاظون ينتشرون في كل مكان . وأقبلوا من
السكر والجهات إلى بغداد ، حاضرة الدنيا ، على قول الزحاج ،
لينعموا بفضلات موائد الموسرين المنعمين ، ودرهمات الأغنياء
المترفين . فكان شأنهم ، شأن المكدين في فراسة ، في القرن
السابع عشر ، أيام أقبلاوا في عهد لويس الرابع عشر ، إلى
باريس . وكانت باريس يومئذ منبع الخيرات ، في حين كانت
المقاطعات الفرنسية جديبة لا خير فيها ؛ بسبب المكوس التي
كانت تفصل بعضها عن بعض . وقد بلغ أمر هؤلاء الشحاظين
من الخطر مبلغاً عظيماً ، وتعدى سؤا لهم القوت إلى الشراسة

(١) رسل الملوك لابن الفراء (مخطوط في خزانتى) ٢٢٢ آ (١٦٣)

في الخلق، والتساوة في الطبع، والبذاءة في اللسان. فأدى ذلك إلى قلق الناس جميعاً، حتى الملوك أنفسهم. فقد شكوا لويس الرابع عشر أمرهم إلى صاحب شرطته. وغضب لويس السادس عشر لوفرتهم. وتدخل برلمان باريس سنة ١٦٦٢ فقرّر طردهم وإعادتهم إلى بلادهم^(١).

على أن أمر الشحاذين في بغداد لم يصل إلى ما بلغه أمر أولئك في باريس من الوقاحة والشراسة. فقد وسعّتهم بغداد وأشبعتهم. وكان الحضارة التي رأوها تشع قد أثرت فيهم أيضاً، فاستعانوا على الكدية بحيل فيها لطف وبراعة، وفيها مكر وخداع، فتفننوا وأجادوا. فكان أن كثّر المكدون، وكانت لهم أحاديث وأنباء، قامت عليها رائعات أدبية صوّرت لنا سعي الناس وراء هذه المهنة التي تدرّ المال الكثير بالجهد القليل.

٥٥ — ولا بُدّ من الإشارة إلى أن أناساً آخرين كانوا يتظاهرون بالفقر ويلتجئون إلى الكدية، لينجوا من أعباء يقال بدافع الكسل والتواني *Fénéantise*، لأن الفقير « خفيف الظهر من كل حق، منفك الرقبة من كل رِق ».

Funk Brentano : Prisons d' Autrefois Ch. vii : Les (١)

Mendiants P. 49.

لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه عليه غوائلُ النّائبات ،
ولا يطمع فيه الأهل والجيران ... (١) « ومن كان على شاكلة
هؤلاء في فرسة كان يُضرب ويُعَذَّب ويُساق إلى السجن (٢).
وأيّاً كان حال هؤلاء ، وسواء أكان الفقر حقاً أم
وسيلة لا بتزاز الأموال ، فقد تفنّن الناس في السؤال ، وبرعوا
في ضروبه وحيله ، ونهَجُوا فيه نهوجاً مختلفات ، وسلكوا
طرقاً متباينات ، سنهاها بعد قليل . لأنهم وجدوا في هذه الحيل
سبيلاً إلى الغنى ، كما وجد الظرفاء المترفون بلطفهم ورقتهم
وشعرهم النعيم في قصور الخلفاء . فكان هناك إذن طريقان
للإسار : اللواذ بالقصور ، أو الانضمام إلى أصحاب هذه الحيل
الدنيا . وقد أبان عن بعض ذلك أبو نواس في قصيدة له . فقال :
سأبغى الغنى إما نديم خليفة يقيم سواء ، أو مخيف سبيل

(١) رسائل الخوارزمي ص ٩٠ .

(٢) N. Larousse Illustré, Mat. Mendiant, (٢)

الفصل الثاني

أسرار الكدية

٥٥ — كان الجاحظ أول من نوه بالمكدين وذكرهم؛ فقد سرد وصية خالويه في وصية خالويه المكدي لابنه ، عندما جاءه الموت ، عددًا من فرقهم ، وبين طرقًا من أسرارهم ، فقال : « وهذا خالويه المكدي ، وكان قد بلغ من البخل والتكدية ، وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد . قالوا له : أتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم ، ولم يبق في الأرض مخطراني ، ولا مستعرض الأقفية ، ولا شحاذ ، ولا كاغاني ، ولا بانوان ، ولا قرسي ، ولا عوآء ، ولا مشعب ، ولا مزيدي ، ولا إسطيل ، إلا وكان تحت يدي . ولم يبق في الأرض كعبي ولا مكدي إلا وقد أخذت العرافة عليه ^(١) . »

حيل الشحاذين
في بغداد وباريس

٥٦ — ولعل من الطرافة أن نتتبع أخبار هؤلاء المكدين فنعلم طرقهم في التكدية وسيرهم فيها ، وأن نجلى كل فريق من هؤلاء الذين ذكرهم الجاحظ ، ونبين خصائصه فيها . فآما

(١) البخلاء ص ٩٣ (دار الكتب) .

المختراني^(١)، فهو الذي يأتيك في زى ناسك متعبد ، عليه
سكينة ووقار ، فيريك أن بابك الخرمي قور لسانه من أصله ،
لأنه أذن للصلاة في بلاده ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتشاءب ،
فلا ترى له لساناً ألبتة . يقول الجاحظ : « ولسانه في الحقيقة
كلسان الثور . ولقد كنت أحد من خدع بذلك » ويصحب
المختراني عادة رجل يحكي قصته للناس ، وقد يحمل لوحاً
أو قرطاساً قد كتب فيه شأنه وقصته ويعرضها على الناس .
ويحكي هذا في فرنسة من كانوا يسمونهم *Les Rifodés*
وكانوا يحملون قرطاساً كتبوا فيه أن مكروهاً أصابهم ، فأضحوا
بلا مأوى^(٢) .

وأما مستعرض الأقفية ، فيأتيك من قفاك ، وهو في
ثياب صالحة ؛ كأنه هاب من الحياء يخاف أن يراه من لا يعرفه ،
ثم يكلمك كلاماً خفياً ، ويشكو لك فقره وعسره ، ويفضي
بذات نفسه .

وأما الكاغاني فهو الذي يتجنن ويتصارع ؛ يظهر أنه
مجنون تارة أو مصروع تارة ، ويزبد حتى لا تشك أن لادواء
له لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى تعجب من بقاء مثله على مثل

(١) أنظر معنى هذه الكلمات في البلاء ج ٩٧ ص ١٠١ .

(٢) *Brentano. Prisons d' Autrefois. Ch. vii. P. 53* (٢)

علته ، فترحمه وتواسيه ، وتبره بما يشاء . وقد كان شحاذو فرنسة
 ياجئون إلى هذه الحيلة ، فيتصارعون في الطرق ويظهرون ذلك :
 أى Frappés d' Epilepsie . وربما وضع أحدهم في فمه قطعة
 صابون ترغى فتخرج الزبد الذى يدل على المرض . وكانوا
 يسمونهم Les Sabouleurs (١) .

وأما البانوان فهو الذى يقف على الباب يستجدى فيفتحه
 قليلا ، ويقول بالفارسية « بانوا ، بانوا » (٢) وتعنى « يامولاي »
 يامولاي ... ! »

والقرسى هو الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ،
 ويبت على ذلك الليل كله . فإذا تورم ، واختنق الدم ، مسحه
 بشيء من صابون ، وبنبت أحمر اسمه « دم الأخوين » ، وقطر
 عليه شيئاً من السمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه .
 فلا يشك من يراه أن به أكلة فيعطف عليه .

وربما احتال المشعب للصبي حين يولد بأن يعميه أو يجعل
 ذراعه معوجة شلاء ؛ أو عضده الواحد أقصر من الثانى ، ليسأل
 به الناس . وربما جاءت به أمه أو أبوه ، فأكرياه بكراء معلوم .

(١) F. B. Prisons d' Autrefois ch, vii, P 54.

(٢) كذا أورده الجاحظ ، وقد أخبرنى الأستاذ الشاعر أحمد الصافى .
 النجنى أن الأصح « بينوا » ومعناها بالفارسية : منقطع مسكين .

أما الإسطييل فهو المتعامي ؛ إن شاء أراك أنه منخسف
العينين ، وإن شاء الله أراك أن بهما ماء .

وأشباه هؤلاء الذين يظهرون المرض ، فيعصبون سائرهم ،
أو يتعامون ، أو يظهرون الشلل ، كانوا كثيراً عند الغربيين .
وكانوا يطوفون في الأسواق متعامين Aveugles أو متصامين
Sourdes أو مشلولي الأطراف Paralytiques . وربما جرحوا
ذراعهم فسأل منها الدم والقيح ، وربما أكلوا ما يسبب نفخة
في بطونهم . يدورون ويستجدون ، فإذا عادوا إلى مأواهم زال
عنهم ما كانوا يشكون ، سردين قول Isaie : « وعندئذ ترى عيون
العميان النور ، وتسمع آذان الصم الأصوات ، ويقفز العرجان
كالغزلان ^(١) ... »

وكان إلى جانب ما ذكرنا ، العواء والمزیدی . أما الأول
فهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء . وربما طرب وكاف له
صوت حسن وحلق شجي . وأما الثاني فهو الذي يدور ومعه
الدريهمات ويقول « هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة
فزيدوني فيها . . » . وربما طلب في الكف فسأل الناس أن
يساعدوه في تكفين ميت كذباً وبهتاناً .

وقد ذكر الجاحظ في ثنایا كلامه عن البخلاء نوعاً آخر

من المكدين هم المعدسون . والمعدس هو الذي يقف على الميت
يسأل في كفنه . أو يقف في طريق مكة على الحمار أو البعير ،
يدعي أنه كان له ، ويزعم أنه عيق عن المضي في سفره بسبب
موت الحمار أو البعير . وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية
والإفريقية .

* * *

٥٧ — ويزداد انتشار المكدين . وتظهر حيل أخرى لم
تكن في زمن الجاحظ . ثم يأتي البيهقي ، في القرن الرابع ،
فيكتب عن المكدين ، ويضيف إلى ما ذكره الجاحظ حيلة
أخرى^(١) .

فهذا رجل يأتيك ، أو يأتي إلى المسجد ، وعليه بزة حسنة
وسراويل واسعة ، فيها تكة قد شدّها إلى عنقه فيقول وطرفه
دامع : « لقد وجهني أبي إلى مرو^(٢) في تجارة ؛ وكان معي متاع
ب عشرة آلاف درهم . فقطّعت على الطريق ، وتركت على
هذه الحال . ولست أحسن صناعة ، ولا معي بضاعة . فخذوا
عليّ . وهذا هو المكّي .

وذاك رجل آخر ، تراه مبكراً إلى المساجد في الأسحار ، يطلب

(١) المحاسن والمساويء للبيهقي ص ٦٢٤ وما بعدها .

(٢) أشهر مدن خراسان ، والنسبة إليها مروزي على غير قياس .

• معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠٧ .

الصدقة من الناس ؛ وهذا هو السحري . وربما قصد لها في النهار
بعد الصلوات . وهذا الضرب ممن يقصدون المسجد ، يشبه
شحاذاى فرنسة الذين كانوا يقصدون الكنائس ، فيقفون أمامها
ويطلبون صدقات المصلين فيها^(١) .

وربما رأيت من يؤثر في يده اليمنى ورجليه حتى يرى
الناس أنه كان مقيداً مغلولاً . أو يأخذ بيده تسكة فيذبحها
يوهمك أنه قد حبس في المطبق خمسين سنة .

وقد يحتمل أحدهم في وجهه حتى يجعله أسود كوجه خاقان
ملك الترك ، ويوهمك أنه ورِمٌ . فيسمونه الخاقانى ويسخرون
منه صرة ويعطفون عليه تارة ، وفي الحالين يربح المال .

وربما ترافق الصاحبان ، فإذا دخلا المدينة قصدا أنبل
مسجد فيها . فيقوم أحدهم في أول الصف والثانى في آخره .
فإذا سلم الإمام ، صاح الذى في آخر الصف بالذى في أوله :
« يا فلان ! قل لهم ... » فيقول الآخر : « قل لهم أنت ، أنا
أيش ؟ » فيقول : « قل ويحك ولا تستعج » فلا يزالون كذلك
وقد علقا قلوب الناس وهم ينتظرون ما يكون منهما . فإذا علما

أنهما قد ملكا القلوب، تكلما بحوائجهما، وقالوا: نحن شريكان
كان معنا أحملُ بزَ كنا حملناها من فسطاط مصر، نريد
العراق، فقطع علينا الطريق وقد بقينا على هذه الحال لا نحسن
أن نسأل. وليست هذه صناعتنا، ويوهمان الناس أنهما ماتا
من الحياء.

ومنهم من يلبس دراعة صوف، مشقوقة من خلف وقدام
وعليه خف ثغرى بلا سراويل، يتشبه بالفراة المنقطعين.

وقد كان شحاذاو الغرب ينحون نحواً كهذا. يجتمعون
عصابات صفاراً بأثواب ممزقة، وقمص قصار، وقبعات مزدانة
ببقع الشحم، وعلى ظهورهم الأكياس، يستعطفون الناس،
ويدعون أنهم سلبوا في الطريق. ويسمون Les Polissons
وربما تشبهوا بالحجاج الآتين من Mont St Michel، وقد
أصابهم الفقر وعضهم الجوع ويسمونهم Les Coquillards^(١)
وقد يعمد شحاذونا إلى طرُق فيها دناءة وسفالة. فيحتال
أحدُهم لخصيتيه حتى يريك أنه آدر. وربما أراك أن بهما شرطاً
أو جرحاً. وتفعل المرأة ذلك في فرجها لتسأل الناس بذلك مالا.

(١) فرنك برتانون ص ٤٤ ٥ ٥٤ F, B, P 54

وكانوا يتعرضون لصناعات المحرقة ، فيعملون التعويذة ،
ويكتبون الحجب ، ويحتالون على الناس^(١) .

٥٨ — وما زال الشحاؤون يتفننون في الكدية حتى

القرود الشحا

بلغوا مبلغاً لم يُجارهم فيه أحد .

ويذكر آدم منز ، نقلاً عن الجوبري ، ما يدعو
إلى العجب والدهشة . حدث الجوبري أنه رأى بحران
سنة ٦١٣ رجلاً من بني ساسان ، قد أخذ قرداً علمه السلام
على الناس ، والتسبيح والسؤال والبكاء . قال : ثم رأيت لهذا
القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد . فإذا كان يوم الجمعة
أرسل عبداً هندياً ، حسن الوجه ، نظيف الملبوس ، إلى الجامع
فبسط عند المحراب سجادة حسنة . فإذا كان في الساعة الرابعة
ألبس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ، وجعل في
وسطه حياصة لها قيمة . ثم طيَّبه بأنواع الطيب ، ثم أركبه
بغلة بمركوب ذهب محلي ، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيد هنود
بأنخر ملبوس : الواحد يحمل الوطاء ، والآخر يحمل الشرموذة

(١) الحريري المقامة الصورية ص ٣١٤ .

والثالث يطرق قدّامه وهو يسلم على الناس . وكلُّ من سأل عنه يُقال له : هذا ابن الملك الفلاني من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور . فلا يزال حتى يدخل الجامع ؛ فيفرش له الوطاء فوق السجادة ، ويحيط له سبحة ومسواك ، فيقاع القرد منديله من الحياصة ويضعه بين يديه ، ويستاك بالمسواك ، ويصلي ركعتين تحية المسجد . ثم يأخذ السبحة ويسبح . فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه ، فسلم على الناس وقال : يا أصحابنا ، من أصبح مُعافى فإن لله عليه نعمة لا تحصى . اعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم ، لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه ، ولكن المؤمن ملقى لقضاء الله ؛ وكان من القضاء المدبر أن زوجه والده ابنة الملك الفلاني . فأقام معها مدّة . ثم قالوا لها إنه عَشِقَ مملوكاً له . فأدركتها الغيرة ، فذهبت إلى أهلها وسحرته كما ترون ... وقد سألفها بجميع الملوك أن تعيده ، فأدعت أنها خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار . وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، فمن يساعده بشيء ؟

ارحموا هذا الشاب الذي عدم الأهل والوطن ، وأخرج

من صورته إلى هذه الصورة ! »

فعندئذ يجعل القرد المنديل على وجهه ويبكي . فترق له القلوب ،
ويرفده الناس . فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير . وهو
يدور به البلاد على هذه الصفة^(١) ... « ا ه .

أفرايت إلى هذه الحكاية البارة المنمقة ، التي يتجلى فيها
الحيلة والخديعة ، وتُظهر الدرجة التي سما إليها اتباع ساسان في
الكدية والسؤال . الحق أنها حيلة نادرة غريبة ، دفعتهم إليها
الحاجة ، والحاجة تولد التفكير والاختراع .

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - لآدم مترز ج ٢ ص ١٠١

١٠٢ نقلًا عن « كشف الأسرار » للجوهرى مخطوط فينا ص ٢٥ آ - ب

الفصل الثالث

أثر المكدين في الأدب

كان الأجدر بنا أن نختم مبحثنا عن الكدية بهذا الفصل؛
ولكننا آثرنا تقديمه لأنه يُظهر لنا صوراً جديدة وحيلاً
طريفة، ذكرها الأدباء والشعراء ولم يذكرها غيرهم. يزيد في
قيمتها أن أولئك الذين صوروها هم شعراء قد عانوا التكدية
بأنفسهم وخبروا مداخلها وأسرارها.

٥٩ — وأشهر هؤلاء الشعراء الأحنف العكبرى ،
وابن الحجاج وأبو دلف الخزرجي .

شعراء الشحاذين
الأحنف العكبرى

أما الأحنف العكبرى فكان شاعر المكدين وظهر يفهم ،
وكان مليح الجملة والتفصيل . قال عنه الصاحب بن عباد « هو
فرد بني ساسان في دار السلام » . وكان يصف في شعره التكدية
وأسرارها ، والمكدين وأحوالهم ، وكيف يرتعون في الأرض
كما يشاؤون ، وأنى يريدون :

على أنى بحمد الله في بيت من المجد
بإخواني بني ساسان ، أهل الجَد والجَد

لهم أرض خراسان فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند^(١)

وأما ابن الحجاج ، فقد كان من شعرائهم الذين يشار
إليهم ، وجلُّ شعره في الكدية . وقد أورد له الثعالبي طرفاً
صالحاً منه ، لا يخرج عن شعر الأحنف المكي^(٢) .

ابن الحجاج

على أن الشاعر الذي يدعو شعره إلى العجب والطرب ،
فأبو دلف الخزرجي ؛ فقد كان كثير الملح والطُرف ، مشحوذ
المدية في الكدية . خنق التسعين في الإطراب والاعتراب ،
وكان ينتاب حضرة صاحب ، ويرتفق بخدمته ، ويتزود
بكتبه في أسفاره ، وكان له قصيدة سماها « مناكاة بني ساسان »
تُمدُّ من أروع الشعر وأحلاه ، وكان صاحب يحفظها حفظاً
عجيباً ، ويعجبه من أبي دلف وفور حفظه منها^(٣) .

أبو دلف
الخزرجي

ويحاكي هؤلاء الشعراء في فراسة ، الشاعر المعروف
(فرانسو فيلون François Villon) فقد خص طائفة من شعره
نظمها باللغة العامية المبتذلة Jargon بذكر ما لاقاه في تنقله
من بلد إلى بلد ، يكدي ويستجدي ، مع طائفة من الصعاليك

فرانسوا فيلون

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٢١ .

السَّائِلِينَ ، بعد أن سَرَقَ وقتلَ وسُجِنَ . وكان يتقن لغة
الشحاذين ويعرف أسرارهم ويعيش معهم^(١) .

معلقة الشحاذين
القصيدة
الساسانية

٦٠ — ولعل أجود ما يؤثر من شعر شعرائنا الشحاذين ،
قصيدة أبي دلف الساسانية . وهي في مائة وتسعين بيتاً أو تزيد ،
ولا شك أنها أجمع ما قيل في الكدية . فقد سرد فيها أحوال
الشحاذين وأخبارهم وطرق تكديتهم ، ولا عيب فيها سوى
ألفاظها ، لأنه أدخل فيها ألفاظ أهل الكدية ، وهي ألفاظ
عجيبة غريبة غامضة ، يشمئز منها الذوق وينبو عنها السمع .
يفتح أبو دلف قصيدته بغزل رقيق ، يخلص منه إلى أنه
من القوم البهاليل ، فيحدثك عن شمائلهم ومحاسنهم ، ثم يسرد
لك أخبارهم وسيرهم وحيلهم حتى تمتد — أولئك البائسين
المخادعين ، وتراهم نصب عينيك . يقول :

جفون دمعها مجرى لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد به جراً على جمر
لقد ذقت الهوى طعم ين من حلو ومن مر
ومن كان من الأحراريس لو سلوة الحر
تعريت كغصن البان ن بين الورق والخضر

وشاهدتُ أعاجيباً وألواناً من الدهر
 على أنى من القوم البهـ ساليل بنى الفـر
 بنى ساسان والحامى الحمى فى سالف الدهر
 فنحن الناس كلّ الناس فى البرّ وفى البحر
 أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
 إلى طنججة بل فى كل أرض خيلنا تسرى
 وإن ضاق بنا قطر نزل عنه إلى قطر
 لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
 فنصطاف على الثلج ونشتو بلاد التمر

ثم يمضى بعد هذا الفخر ، فيعدد أنواعهم وأصنافهم
 فيقول : إن منهم المتجانن والمتجاننة ، ومن يعلق فى صدره
 الرقى والمعاذات ، ومن يقوم فى مجالس القصاص ، فيأمر
 القاص أصحابه أن يرفدوه ، فإذا تفرقوا تقاسما ما أخذه ، وأن
 منهم من يبكي فى الأسواق ويرتجف فى البرد ليعطى ، ومن
 يطوف على حوانيت الباعة فيأخذ جوزة من هنا ، وتمرّة أو تينة
 من هناك . ومنهم من يشدون العصابات على جباههم يوهمون
 الناس أنهم مرضى . أو يعقر نفسه بالموسى ليسيل دمه ويستدر
 مال الناس ، أو يطلى جسمه بالسيرج حتى يسودّ فيوهم الرائيين

أن الجن قد لطمته في الليالي الخالكات . أو يدعى أنه من
 الثغر وأنه فقير . أو يحمل ماء الورد يرشه على الناس ، أو البخور
 يبخرهم بشذاه ، أو العطر يعطوهم بطيبه ، وربما تزيا واحد
 بزى الرهبان ، أو أكدي على أنه من الحجاج ، أو لبس الشعر
 لأنه من الزهاد . وقد يزعم أنه خرج من بلاد الروم وترك أهليه
 رهائن هناك ، وأنه يطوف ليجمع ما يفكهم به . وقد يقطع يده
 ويحملها على كتفه يسأل بها ، أو ينام في السكك والأسواق
 على طريق المارة ، فتعلوه غيرة التراب ، فيرحم ويعطى . وربما
 قرأ التوراة والإنجيل ، وأوهم أنه كان يهودياً فأسلم ، أو نصرانياً
 فآمن . وقد يثقب في بدنه ثقبه وينفخ فيها حتى يتورم بدنه ،
 ويلف المنديل على رقبته فينتفخ رأسه ووجهه . أو أن يطوف
 على الأبواب فيما بين المغرب والعشاء ، وينادى : رحم الله من
 عشي الغريب ، فيأخذ من كل دار كسرة ، وينال من كل
 بيت لقمة . وقد يذهب إلى أبعد من هذا ، فيحمل دفاتر
 الحديث يرويها ، ويأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر .
 أو ينظر في الفأل والزجر والنجوم ؛ فيغتر به الأبله ، ويجود
 عليه بدراهمه . أو يدعى أن أباه كان نصرانياً ، وأمه كانت
 يهودية ، وأن النبي صلوات الله عليه أتاه في النوم فقال له :

لَا تَفْتَرِ بَدِينِ أَبِيكَ ، وَاتَّبِعْ مِلَّتِي ؛ فَاسْلَمْ ، فَطَرَدَهُ أَبَوَاهُ .
 وَرَبَّمَا طَيْنَ وَاحِدَهُمْ وَجْهَهُ وَسَاعَدَهُ بَطِينُ أَحْمَرَ ، وَرَوَى الْأَشْعَارُ
 عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَرَبَّمَا خَضَبَ لَحِيَّتَهُ بِالْحَنَاءِ
 وَادَّعَى أَنَّهُ مِنَ الشَّيْعَةِ الْكَرَامِ ، أَوْ حَمَلَ السُّبُحَ وَالْأَلْوَاحَ مِنَ
 الطَّيْنِ وَزَعَمَ أَنَّهَا مِنْ قَبْرِ الْحُسَيْنِ . فَتَقَبَّلَ عَلَيْهِ الشَّيْعَةُ وَيَتَحَفَّوْنَهُ
 بِالْهَدَايَا وَالْأَلطَافِ . وَرَبَّمَا نَاحَ عَلَى الْحُسَيْنِ وَرَوَى الْأَشْعَارَ فِي
 فُضَائِلِهِ وَمَزَايَاهُ . وَقَدْ يَحْضُرُ الْأَسْوَاقَ وَيَقِفُ إِلَى جَانِبِ صَاحِبِهِ ،
 فَيُرَوَّى هَذَا فُضَائِلُ أَبِي بَكْرٍ ، وَيُرَوَّى هَذَا فُضَائِلُ عَلِيٍّ ، فَلَا
 يَفُوتُهُمَا دَرَاهِمُ السُّنِّيِّ وَالشَّيْعِيِّ ، ثُمَّ يَتَقَاسِمَانِ الدَّرَاهِمَ وَالْهَبَاتِ .
 وَرَبَّمَا لَبَسَ الثِّيَابَ الْمَمْرُوقَةَ وَحَلَقَ لَحِيَّتَهُ الْمَشْعَثَةَ ، وَأَوْحَمَكَ أَنَّهُ
 مُوسَى مَجْنُونٌ . وَرَبَّمَا أَكْثَرَى الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءَ فَأَكْدَى .
 أَوْ حَمَلَ السَّبِيحَاتِ وَأَقْرَاصَ الْحُلُوفِ فَاسْتَجْدَى . أَوْ تَصَامَمَ وَقَالَ
 لِلْمُخَاطَبَةِ : أَنَا لَا أَسْمَعُ ، فَتَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْخَاتَمِ بِاسْمِكَ وَإِسْمِ أَبِيكَ
 أَنْبَذَكَ بِمَا تَقُولُ . فَإِذَا تَكَلَّمَ الرَّجُلُ سَمِعَهُ وَأَنْبَأَهُ بِمَا قَالَ . وَقَدْ
 يَدَّعَى رَقِيَّةَ الْمَجَانِينِ وَأَصْحَابَ الْعَاهَاتِ . أَوْ يَمْخَرِقُ عَلَى الْعَامِيِّ
 وَيُضْمِنُ لَهُ الْجَنَّةَ . أَوْ يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَالَ لِيُحْجِجَ عَنْهُ وَيَقُولُ : إِنْ
 لَمْ أَحْجِجْ عَنْكَ فَخُذْ مِنْ الْجَنَّةِ وَقِفْ عَلَيْكَ . أَوْ يَذْهَبُ فِي
 الْآفَاقِ يَبْعَثُ الرُّؤْيَا وَيَبِيعُ الْأَدْوَاءَ لِلنِّسَاءِ ، وَيَدَاوِي الرَّمْدَى .

أو يقرّد ويدبّب . أو يعطى الهزيلات ما يشمن به . أو يطحن
النوى والحديد والزجاج بأيديه وأضراره . أو يرعد رعدة
شديدة تهتز لها مفاصله وتصطك أسنانه . ويقول : « لقد قتلت
سنوراً أو كلباً فلطممتني الجن » . وقد يمشى على الحبل . أو يصعد
بالبكر . أو يمضي بين الدور يجمع الخرق والأطمار^(١)
والقصيدة كما ذكرنا في مائة وتسعين بيتاً ، وألفاظها غريبة
نافرة ، وفيها تعابير القوم . وهي جامعة لما ذكرنا ، مما لا تجده
في كتاب ولا تلقاء في قصيدة . فهي جديرة أن تسمى بحق
« معلقة الشحاذين » .

٦١ — ويسوقنا الحديث عن أدب الكدية إلى المقامات . المقامات والكدية
ففي المقامات صور حيّة متحركة ، يزيد في جمالها براعة القصص ،
وحلاوة اللفظ في بعض الأحيان . وقد كان لقصيدة أبي دلف
تأثير كبير في الهمداني^(٢) حتى أنه يشير في مقاماته إليها ويتطلع
على ما فيها ، وقد استشهد في مقامته الأولى بأبيات منها^(٣) .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٣ ، ٣٤٢ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٤١١ ، ٤١٢ .

(٣) رسائل الهمداني ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وانظر يتيمة الدهر

ج ٤ ص ١٤١ ، وج ٣ ص ١٧٦ .

على أننا لا نمجد في مقاماته التي وصلت إلينا صوراً كثيرة
 للمكدين وحيلهم . فمقاماته أقل شأنًا في تصوير الكدية من
 مقامات الحريري^(١) . ورغم ذلك فهو يفتخر بأنه أُملي في الكدية
 أربعائة مقامة ، لا مناسبة بين واحدة وثانية في اللفظ أو المعنى^(٢)
 ولكنها ضاعت كلها ، ... وأكبر الظن أن مقامات الهمداني
 التي بين أيدينا صور واضحات لما في قصيدة أبي دلف الخزرجي ؛
 فإن حيل مقاماته تشبه حيل القصيدة الساسانية . أما الحريري
 فكان أبرع وصفًا وأغزر حيلًا ، وسنرى ذلك بعد حين .
 ولن نتعرض لكل ما صورته الهمداني والحريري في مقاماتهما
 من طُرُق الكدية والمكدين ، وإنما هي طُرُق منتقاة من
 هذه وتلك .

صورة من
الهمداني

٦٢ — ففي المقامة الأسدية نجد أبا الفتح الإسكندري واقفًا
 على رأس ابنٍ وبُنْيَةٍ بجرابٍ وعُصِيَّةٍ ، يُطَرَّبُ ويقول :
 رحم الله من حشا في جراحي مكارمه
 رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه
 إنه خادم لكم وهي لا شك خادمه^(٣)

(١) دائرة المعارف الإسلامية (المقامات) .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٤١ ، والرسائل ص ٣٨٩ .

(٣) المقامات ص ٤٢ .

وربما رأيناه^(١) يطوف مع أولاده الصغار ، يدعى أن فاقه
أصابته بعد عناء ، وعسر بعد يسر ؛ أو يدعى مسغبة أولاده
ويستجدي^(٢) . أو يأتي القوم حاملاً لهم بشارة من النبي عليه
السلام ويقول : « لقد رأيتُ النبي في المنام ، كالشمس تحت
الغمام ، والبدر ليلَ التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل
والملائكة ترفعه ، ثم علمني دعاء أوصاني أن أعلمه أمته ،
فكتبتُه على هذه الأوراق ، بخلق ومسك ، فمن استوهمه
وهبته ، ومن ردَّ على ثمن القرطاس أخذته^(٣) » وإذا بالدرهم
تنهال عليه .

وقد نراه يتعالمى في شملة صوف ، يدور كالخدروف ،
متبرئاً بأطول منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل ، يخطب
الأرض بها على إيقاع غنج ، بلحن هزج^(٤) . أو تراه يدعى
أنه كان من الكافرين فأمن وقصد بلاد المؤمنين ، تاركاً وراءه
حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلا مسومة ، ومراكب
وعبيداً ... فهو يستجدي ... « لا أستكثر البذرة ، وأقبل

(١) المقامة الجرجانية ص ٥٦ .

(٢) الهمداني . المقامة البصرية ص ٦٧ ، والمقامة البخارية ص ٨٧ ،
وشبيهة بهما المقامة الأذربيجانية ص ٥١ ، ولا أولاد معه فيها .

(٣) المقامة الأصفهانية ص ٥٩ .

(٤) المكفوفية ص ٨٤ .

الذرة ، ولا أرد التمرة^(١) . وقد يجعل نفسه قراداً يُرَقِّص القردة
وَيُلَهِّي الناس^(٢) . وهذه صور رأيها من قبل في قصيدة أبي داف
غير أن هناك صورة رسمها الحمداني في المقامة الموصلية ،
لعلها أبرع الصور وأجملها . ففيها حلاوة وخفة ، وعليها سناء
وطلاوة . وأعتقد أنها قطعة خالدة خلود الشحاذين . فقد ادعى
أبو الفتح يوماً إحياء الموتى . وها هو ذا يدخل على ميت قد
سُخِّنَ ماؤه ليفسل ، وهْيءَ تابوته ليحمل ، وخيَّطت أثوابه
ليكفن ، وحُفرت حفرته ليدفن . فيجس عرقه ، ويقول :
يا قوم ! اتقوا الله لا تدفنوه . إنه حي ، وإنما عرَّته بهمة ، وعلته
سكته ، وأنا أسلمه مفتوح العينين بعد يومين . ويقوم أبو الفتح
ومعه صاحب له ، فينزعان ثياب الميت ، ويشدان له العاثم ،
ويعلقان عليه التماثم ، ويلعقانه الزيت ، ثم يخليان له البيت ،
ويقول أبو الفتح : « دعوه ، دعوه . وإن سمعتم له أنيناً فلا
تجيبوه ! »

ويشيع الخبر بأن الميت قد نُشِرَ ؛ فتنتال عليه ، وعلى
صاحبه ، الهدايا من كل دار . حتى إذا وُرمَ كيسهما فضة وذهباً ،
وامتلاً رحلها أقطاً وسمناً ... وخاض أهل الميت في اللهو فرحين

(١) المقامة القزوينية ص ٩١ .

(٢) المقامة القردية ص ١٠١ .

حاولا الفرار . ولكنهما ما استطاعا إليه سبيلا . فلما مضى
اليومان ، جاء أهل الميت إلى صاحبنا يطلبون منه الوفاء بوعدده ،
فیتقدم أبو الفتح ، ثابت الجنان ، ويحذر التناثم عن يده ، ويحل
العمائم عن جسده . ثم يقول لهم : أقيموه على وجهه ! فأناموه .
ثم يقول : أقيموه على رجليه ، فأقاموه . ثم يقول : خلوا عن
يديه ! وإذا بالميت يهوى على الأرض فيتحطم ويتهشم . فيفغر
صاحبنا فاه ، ويهز رأسه ، ويوقن أنه حقا ميت . فيوسعونه
ضربا ورفسا ، ولكما وشما ، فإذا شغلوا بالميت ، فر صاحبنا
يحمل الأموال ويسوق أمامه الهبات^(١)

صور من
الحريري

٦٣ — ولا يخرج ما عند الحريري ، عما ذكره أبو دلف
في قصيدته أو مانوّه به الجاحظ من قبل . على أن في مقامات
الحريري من الحركة وبراعة التصوير ، الشيء الكثير . ويذكر
الحريري أنه رأى المطهر بن سلال المكدي في أحد مساجد
البصرة فسمع منه وقائعه وذكريات صباه ، في هذه الحرفة
الطيبة المباركة ، وأسرع إلى تدوينها في مقاماته^(٢)

(١) الهمداني . المقامة الموصلية .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (المقامات) ، وطبقات الشافعية

للسبكي ج ٤ ص ٢٩٦ . وابن طغرى بردى ج ٣ ص ٢٣ .

في هذه المقامات ، نجد أبا زيد السروجي يحتال فيبرع
 في الاحتيال . ويبتز الأموال بذكاء وشرارة ودهاء . ها هو ذا
 يدخل المسجد محجوب المقلتين ، قد اعتضد شبه الخلالة ،
 واستقاد بمجوز كالسعلة ، فيقف وقفة المتهافت ، ويحيي تحية
 الخافت ، ويبرز من وعائه رقاعا قد كتبن بألوان الأصباغ ؛
 فيناولها عجوزه الحيزبون ، لتتوسم له الزبون ... وإذا في إحدى
 الرقاع أن الوجع قد أضره ، فينادي : هل حر يخفف أثقاله
 بمثقال من ذهب ، ويطفىء حر قلبه بسريال وسروال . فيغتر
 به الناس ، ويجود عليه الحارث بن همام ، بقميص وطعام . فيعود
 أبو زيد ، وإذا البؤس قد زال ، وإذا العمى قد ارتفع ^(١)

وها هو ذا يتحوّل عن المساجد إلى المقابر . فيقف على
 القبور ، متحصراً بهراوة ، قد لفع وجهه بردائه ، ونكر
 شخصه لدهائه ، فيعظ كثيراً ، ويذكر حال الدنيا وما آلتها ،
 والآخرة وعذابها ، وحوور الجنة ونعيمها . فإذا أثر فيهم الوعظ ،
 سألهم مالا . فيترعون له كمّة ، وينحدر فرحاً جذلان ^(٢)

وقد نراه يهجر المساجد والمقابر ويتنقل في الشوارع : يطرق
 الأبواب سائلاً ، فيخلب الناس بعذوبة نطقه ؛ فإذا دخل داراً

(١) مقامات الحريري : المقامة البرقعيدية ص ٦٠ .

(٢) مقامات الحريري : المقامة الساوية ص ٩٥ .

لوقى بالترحاب والسرور ، فأكل وشبع ، ثم يبكى ويشكو ؛
فيثير شفقة القوم . وإذا بهم يسارعون فيجودون عليه
بالأموال ^(١) .

وربما تنكر بزي عجز تسوق أمامها صبية ضعافا . فتأتى
قوما تحدثهم أنها من سروات القبائل ، وسريّات العقائل .
قلب لها الدهر ظهر الجحش ؛ فاغبر العيش ، وازورّ الدرهم ، وتمنت
الموت الأحمر ... فيألمون ويعطونها ^(٢)

قد يأتى بولده فيخبره أنه سينبئعه . فإذا باعه ، واشتراه
أبله مغفل ، فرّ الولد وعاد إلى أبيه يضحك من غفلة مشتريه ^(٣)
ونراه يقف بعض الأحيين ، فينادى أن صديقه مات ،
وليس عنده ثمن كفن ، بعد أن كان حليف الجود والندى ،
و بعد أن رقل في النعيم ، ولبس الخز والخزير ^(٤)

فأنت ترى بعد هذا كله ، أن المقامات قد قامت على صور
للكدية ، وأن هذه الصور قد ذكرها أبو دلف في قصيدته .

(١) مقامات الحريري : المقامة الكوفية ص ٤٠ ، وانظر الحمداني
في المقامة الكوفية أيضا ص ٣١ .

(٢) مقامات الحريري : المقامة البغدادية ص ١٢٠ .

(٣) مقامات الحريري : المقامات الزبيدية ص ٣٧٠ .

(٤) مقامات الحريري : المقامة الفارقية ص ١٩٣ .

وإذا كان ابن فارس^(١) وابن دريد^(٢) قد يكونان قد هيا
للهمداني المقامة من حيث شكلها ونهجها وكان الحريري قد تأثر
بالبديع ، فإن أبا دلف قد هيا لها معاً مادة تلك المقامات
وصورها .

٦٤ — أما في الأدب الفرنسي ، فنحن إذا استثنينا فيلون ،
فلا نكاد نجد في وصف الشحاذين وطرقهم في الإكداء ، اللهم
إلا صورة رسمها فيكتور هوغو في روايته « أحدب نوتردام
Le Bossue de Nôtre Dame » وصف بها طائفة من
(النور) الذين كانوا يتسولون ، وسراها بعد قليل .

الشحاذون في
الأدب الفرنسي

٦٥ — ولئن قلَّت الصور الأدبية ، فقد كثرت صور
المصورين والفنانين في أوربة كلها . فقد وجدوا في مناظر
الشحاذين ما يستحق أن تخطه ريشتهم في لوحات رائعة . فأثبتوا
هياتهم وما فيها من غريب ، وأطمارهم وما فيها من عجيب ،
وعُنُوا بإظهار ملامح وجوههم وتجمعاتها ، ولحاهم الكثرة
وشموورها ، وكشاكيلهم ورقعها . وأشهر هذه اللوحات الفنية
« هرارا لوفيو Herrera Le Vieux » التي تمثل شحاذاً

الشحاذون عند
الرسامين وأشهر
اللوحات الزينية

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣ .

(٢) أنظر النثر الفني في القرن الرابع في بحثه عن المقامات .

واقفاً فيه كثير من الحياة والواقعية ، ولوحة « موريللو Murello »
« الشحاذا الصغير » وتعد من أروع آثاره . وهي في اللوفر ،
ولوحة « رامبراندت Rembrandt » التي تمثل شحاذاً يعزف
على قيثارة . وهي محفوظة في متحف أمستردام . وبرع
« بوردون S . Bourdon » في لوحته « الشحاذين » التي
صورها . وقد حفل أصحاب المدرسة الفلامندية بالشحاذين
عناية كبرى . وفي اللوحات المشهورة أيضاً لوحة « دُلا روش
P . Delaroche » التي صور فيها « الشحاذا الإيطالية » .
ولوحة « رينولد Reynold » الانجليزى التي تمثل « الشحاذا
الصغير » ، والتي تبدو فيها الروح الانجليزية بأظهر معانيها . ورسم
« جانرون Jeanron » شحاذاً أعمى . وصور « لُمان
R . lehman » الشحاذين الرومان .

أشهر التماثيل

٦٦ — ولم يقنع فنانون أوروبا بالتصوير ، بل تعدوه إلى
صنع التماثيل . فصنع « بريولات Prévault » تمثال « الكدية
Mendicité » بالجلس ، وصنع « غريو Grillon » تمثال
« طائفة من الشحاذين » بالآخر (١) .

الفصل الرابع

حياة الشحاذين

دورهم وأعمالهم

رأيت في الفصل السابق ، كيف لجأ المكدون إلى ابتزاز الأموال بحيل بارعات وطرق غريبة ، فبلغوا بمخرفاتهم ما بلغوه ونالوا ما تمنوه ، ولم يفهم شيء من لذات الحياة التي لذ بها آخرون ، وإنما فاتهم ما كان عند غيرهم من الترفع عن الدنيا والنبالة في المزايا ، واللباقة في الحياة .

٦٧ — لقد عاش الشحاذون متشردين ، يتنقلون من

تنقلهم

مكان إلى مكان ، ومن بلد إلى بلد ، بل من حي إلى حي ، فحيثما لقطوا سقطوا ، فكانوا يأخذون أطايب كل بلد ، تراهم بالكوفة أيام الهيرين ، وفي البصرة أيام الشبوط ، وفي بغداد وقت الرازقي والرماني ، وفي حلوان أيام التين والجوز ، وفي الجبل أيام اللوز ، يأكلون من طيبات الأرض ، لا يهتمون ولا يخافون ، ولا يهتمون أو يرهبون .

تلك كانت حيانتهم : فوضى يرون فيها لذة ، وحيل تبرر
عندهم الغاية ، وخدع كلها دناءة ، يضحكون من الناس ويلهون
ويبتزون المطاعم والأموال ولا يحزنون .

٦٨ — ولا ندري شيئاً عن حيانتهم الخاصة . فقد كان دورهم في فرنسا

شحاذاً وفرنسة يتبعون مذهب الإباحة في كل شيء ؛ فما كان
للواحد هو للجميع . وقد وصفهم هوغو في روايته « أحذب
باريس » مأواهم الذي يأوون إليه في الليل . يقول :
« مكان واسع ، لا نظام فيه ، نيران تشتعل في منتصف الباحة
يتحلق حولها فئات عجيبة ، وينعكس النيران فيضيء هنا ،
ويظلم هناك . وكانوا يذهبون ويحيثون ، ويصيحون ويتكلمون
ويغنون ؛ فما تسمع غير الضحكات المثيرة ، وصراخ الأطفال ،
وأصوات النساء . وقد ترى في بعض الأحيان ، في البقاع
للضاعة بالنار ، كلاب تمر وتجيث أمام الرجال ، ورجال يجلسون
أمام الكلاب .

وقد كان يخيل أن حدود الأجناس والأنواع تُمحي في هذا
المكان . ويخيل أن الرجال والنساء والحيوانات والأمراض
كل أولئك مشاع بين هؤلاء . كل شيء مبهم غامض مخيف .

والواحد يملك الجميع^(١) ... »

صورة من
صوفيل

٦٩ — وهذه الصورة تذكرنا بوصف المؤرخ الفرنسي « صوفيل Sauvel » في كتابه « تحريات عن آثار مدينة باريس » لدور الشحاذين . يقول : « ها هو ذا مكان واسع ، غير منتظم . أرضه ملاءى بالوحل ، جوه مغمم بأخبث الروائح ؛ ولا بد للوصول إليه من الهبوط في منحدر طويل متعرج . فإذا دخله الإنسان شعر أنه دخل عالماً آخر بعيداً عن دنياه التي كان فيها ... » ثم يذكر أنه رأى داراً من دورهم مملوءة بالوحل ، تكاد تنقض من الوهن ، كانت تسكن فيها خمسون أسرة ، ذوات أولاد كثيرين ، شرعيين وطبيين ، ولقطاء^(٢) ... »

صورة من
الحريري عرس
في دار

٧٠ — ولا ندري ، وقد وصفنا دور شحاذي فراسة ، كيف كان دور شحاذينا . ومن المرجح أنه كان لهم ندوات يجتمعون فيها . ولم ينته إلينا وصف دورهم وندواتهم . غير أن الحريري ، في المقامة الصورية يصف لنا عرس مكدي على مكديّة نستطيع أن نتبين من وصفه ، داراً من الدور التي كانت لهم وهي دار حقيرة في الظاهر ، عظيمة في الباطن ، فظاهرها الفقر وباطنها النعيم . يقول « فلما نزلنا عن صهوات الخيول ، وقدمنا

البحراني ذكر
الذي بكس
ذكر

(١) فرانك برنتانو ص ٥٢ .

(٢) أنظر فرانك برنتانو ص ٥١ .

الأقدام للدخول ، رأيت دهليزاً مجللاً بأطمار مخرقة ، ومكلاً
 بمخارف^(١) معلقة. وهناك شخص على قطيفة ، فوق دكة لطيفة ،
 قرأ بنى عنوان الصحيفة . ودعاني التطير إلى أن عادت لذلك
 الجالس ، فعزمت عليه بمصرف الأقدار ليُعرفني من رب هذه
 الدار . فقال : ليس لها مالك معين ، ولا صاحب مبین ؛ إنما هي
 مصطبة المقيمين والمدروزين ، ووليحة المشقشين والمجلوزين^(٢)
 فوجت الدار متجرعا الغصص ، كما يلج العصفور القفص ، فإذا
 فيها أرائك منقوشة ، وطنافس مفروشة ، ونمارق مصفوفة ،
 وسجوف مرصوفة ، وقد أقبل العروس يمس في برده ، فحين
 جلس كأنه ابن ماء السماء ، نادى مناد من قبل الأحماء :
 وحرمة ساسان ، أستاذ الأستاذين ، وقدوة الشحاذين ، لا عقد
 هذا العقد المبجل ، في هذا اليوم الأغر المحجل ، إلا الذي جال
 وجاب ، وشب في الكدية وشاب ... » وإذا بأبي زيد
 السروجي يتقدم فيخطب خطبة النكاح ويثنى على الزوج ، بأنه
 ولأج ابن خراج ، ذو الوجه الوقاح ، والإفك الصراح ، والهرير
 والصياح . ويعقد العقد على صداق هو : مخلاة وعكاز ، ورداء
 الاكداء ، وكوز صغير .

(١) المخارف ، ج ، مخرف ؛ وهو الزنبيل الذي يجعل فيه
 المكدي طعامه .

(٢) ضروب من الشحاذين .

الفصل الخامس

محاسن الكدية

محاسن الكدية ٧١ — وللكدية محاسن باهرة ، لا بد من ذكرها فهذا
مكد ينصح لابنه بأن يكدي ، فيعرض أمامه المكاسب كلها
فما يزال يبين مساوئها ، ويظهر معاييبها حتى يقنع ابنه بأن
الكدية سيدة الحرف وينبوع الخيرات .

« يا بني ! إني جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف
الدهور ، قرأت المرء بنشبه لا ينسبه ، والفحص عن مكسبه
لا عن حسبه ، وكنت سمعت » أن المعاش إماره وتجارة وزراعة
وصناعة « ، فمارست هذه الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما
استرغدت فيها عيشة . أما قرص الولايات وخلس الإمارات
فأضغاث أحلام ... وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطر
وطعمة للغارات . وأما اتخاذ الضياع ... فمنهكة الأعراض ،
وأما حرف الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافعة في
جميع الأوقات ... ولم أر ما هو بارد المغم ، لنيد المطعم ، وافي
المكسب ، صافي المشرب إلا الحرفة التي وضع ساسان أسامها

ونوع أجناسها . فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سبيلها الى
 مدينتها . إذ كانت المتجر الذي لا يبور ، والمنهل الذي لا يفر ،
 والمصباح الذي يعيش اليه الجمهور ، ويستصبح به العمى
 والعمور . ولقد كان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم
 مس الصيف ، ولا يقلقهم سل السيف ، ولا يرهبون ممن
 برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . أنديتهم منزهة ،
 وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما
 انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ولا يرهبون سلطاناً . «
 والحق أنهم وجدوا في الكدية من طمأنينة العيش وهدوء
 البال ما لا يجده غيرهم في الصناعات . « فصناعاتهم محببة لذيدة
 وصاحبها في نعيم لا ينفد ، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض
 وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب ، غيثاً حل
 لا يخاف البؤس . يسير حيث شاء ، يأخذ كما رأيت ، أطيب
 كل بلد . فهو ساعة في البصرة ، ويوما في حلوان ، وليلة في
 الجبل . وهو رخي البال حسن الحال ، لا يغتم لأهل ولا مال ،
 ولا دار أو عقار .

فهذه الأوصاف تغري وتغوي . وأكرم بمهنة كلها فوضى
 لا يقيدها قيد ، ولا يخضع الإنسان فيها لنظام ، يأتيه رزقه
 رغداً من هنا وهناك ، لا يؤسر في وطن ولا يأبه بأحد ، ولا
 يعرف الخلق الكريم ولا الشرف الرفيع . إنه حر ، حر طليق

الفصل السادس

شروط الصناعة

٧٢ — ولم ينسَ ذلك المكدي ، وقد نصح لابنه أن
يصبح مكدياً ، إرشاد ابنه إلى ما ينبغي له عمله ، وتبيان صفات
حرفته وشروط صناعته فيقول : « واعلم أن الارتكاض بابها ،
والنشاط جلبابها ، والفطنة مصباحها ، والقِحة سلاحها . فلجَّ
كل لجَّ وانتجع كل روض ، وألقِ دلوك في كل حوض ،
ولا تسأم الطالب ، ولا تحل الدأب . فقد كان مكتوباً على
عصا شينخنا ساسان : من طلب جلب ، ومن جال نال ...^(١) »
« وأبرز يا بني باكرآ ، بحرارة الأسد ، وختل الذئب ،
وحرص الخنزير ، ونشاط الظبي ، ومكر الثعلب ، وحبر الجمل ،
وتلطف الهر ، وتلون براقش ، وحيلة قصير ، ودهاء عمرو ،
ولطف الشعبي ، وفطنة إياس ، ومجانة أبي نواس ، وطمع أشعب
وعارضة أبي العيناء^(٢) » .

(١) المقامة الساسانية ص ٥٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٧ .

فهذا عبقرى الشعاذين !

أفسمعت إلى هذا الوصف ؟ أرايت هذه الصفات ؟ وليت
شعري ما الذى يعُوزه بعد . وقد أوصاه بالحرارة والختل ، والحرص
والنشاط ، والمكر والصبر ، والتلطف والتلون ، والحيلة والدهاء
والفطنة والمجانة ، والطمع والعارضة .

إن مثل هذا ليستخرج الدرهم من مخابئها مهما جهد الإنسان
لإخفائها ، بل إن الدرهم ليسعى إليه سعياً ، وهو هادئ مطمئن .
ولا تحسبن شروطها تمت ، وصفاتها وفيت ، فإن لها شروطاً
أخر . يقول : « واتخذ بصيرتك للعيافة^(١) ، وأنعم نظرك
للقيافة^(٢) ، فإن من صدق توسمه^(٣) ، طال تبشمه ، واشكر
على النقيير^(٤) ، ولا تقنط عند الرد ، ولا تستبعد رشح الحجر الصلد ،
ولا تيأس من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم
الكافرون ...

« وإذا خيّرت بين ذرة مفقودة ، ودرّة موعودة ، فلي إلى
النقد وفضل اليوم على الغد . فإن للتأخير آفات ، وللعزائم

(١) العيافة زجر الطير للفأل .

(٢) القائف الذى يعرف الآثار ويلحق الآباء بالأبناء .

(٣) يعنى أنه من توسم أمراً وتفرس فيه ثم جاء على وفق ما توسم
لشدة فطنته كان دائماً التبسم .

(٤) المراد الشيء الحفير .

بدوات ، وعليك بصبر أولى العزم ، ورفق ذوى الحزم . وتخلق
 بالخلق السببط^(١) ، وقيّد الدرهم بالربط ، ولا تجعل يدك مغلولة
 إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، ومتى نبا بك بلد ،
 أو نابك فيه كمد ، فبت^(٢) منه أملك ، واسرح عنه جمالك ،
 ولا تستثقلن الرحلة ، ولا تذكرهن النقلة ، فإن أعلام شريعتنا
 وأشياخ عشيرتنا ، أجمعوا على أن الحركة بركة ، وزرّوا على
 من زعم أن الغربة كربة . وإذا أزمعت على الاغتراب ،
 وأعددت له العصا والجراب . فتخيّر الرفيق المسعد ، من قبل
 أن تصعد ، فإن الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق .

« وإياك والكسل ، فإنه عنوان النحوس ، وليوس ذوى
 البوس ، وشيمة العجزة ، وعليك بالإقدام ، ولو على الضرغام ؛
 فإن جراءة الجنان ، تنطق اللسان ، وتطلق العنان ، وبها
 تدرك الحظوة ، وتملك الثروة . ولهذا قيل فى المثل : من جسر
 أيسر ، ومن هاب خاب .

« يا بنى ! قد أوصيت واستقصيت ؛ فإن اقتديت فواهاً
 لك ، وإن اعتديت فواهاً منك . والله خليفتى عليك ، وأرجو
 أن لا تخلف ظنى فيك .

(١) الخلق السهل الرضى .

(٢) بت أى اقطع .

« ولما سمع بنو ساسان ، هذى الوصايا الحسان ، فضلوها
على وصايا لقمان ، وحفظوها كما تحفظ أم القرآن ... »^(١) .
تلك هي وصية مكد لابنه . فلا غرو أن يُسمى من يتخلق
بهذه الآخلاق « هو أبو الدراج ، ولأج بن خراج ، ذو الوجه
الوقاح ، والإفك الصراح ، والمهري والصياح والإبرام والإلحاح »
ومهما ذكرت لك من الصفات وفصلت ، فلن أستطيع أن
أوفي واحداً منهم حقه . كما وصف واحد منهم نفسه . ولعلَّ
هذا الوصف الذي سأنقله إليك ؛ من أبرع ما خلف الجاحظ ؛
ففيها من الدقة والبراعة والشمول ما يعجز عنه كبار الوصافين
في الغرب .

(١) المقامة الساسانية ص ٥٨٠ .

الفصل السابع

شـحـاذ

٧٣ — قال الجاحظ : « كان خالد بن يزيد ، شـيـخ
المكدين . وكان قاصاً متكلماً بليغاً داهياً . فلما جاءه الموت دعا
بابنه وقال له :

« إني قد بلغت في البر منقطع التراب ، وفي البحر أقصى
« مبلغ السفين ؛ فلا عليك ألا ترى ذا القرنين .

« وقد بت بالقفر مع الغول . وتزوجت السعلاة^(١)
« وجاءت الهاتف^(٢) ، ورغت عن الجن إلى الجن^(٣) ، واصطدت
« الشق^(٤) ، وصحبنى الرئي^(٥) ، وعرفت خدع الكاهن ، وتدسيس
« العراف ، وإلى ما يذهب إليه العياف^(٦) وما يقوله أصحاب

(١) السعلاة زوج الغيلان الأتني ، ج سمانى .

(٢) في اللسان : سمعت هاتفاً يهتف إذا كنت تسمع الصوت ولا
تبصر أحداً .

(٣) راغ إلى كذا ، مال والحن حى من الجن .

(٤) حيوان خرافى كنصف الانسان .

(٥) جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا ، يقال مع فلان رئى .

(٦) العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ،
والعياف صاحبها .

« الأكتاف^(١) وعرفت التنجيم والزجر .

« إن هذا المال لم أجمعه من القصص والتكديّة ، ومن
« احتيال النهار ومكابدة الليل ، ولا يُجمع مثله أبداً إلا من
« معاناة ركوب البحر ، ومن عمل السلطان أو من كيمياء
« الذهب والفضة .

« وإني قد لا بست السلاطين والمساكين ، وخدمت
« الخلفاء والمكدين ، وخالطت النُصّاك والفتّاك ، وعمرت
« السجون كما عمرت مجالس الذكر ، وحلبت الدهر أشطّره ،
« وصادفت دهرأ كثير الأعاجيب . فلو لا أني دخلت من كل
« باب ، وجريت مع كل ريح ، وعرفت السراء والضراء ؛
« حتى مثلت لى التجارب عواقب الأمور ، وقربتنى من
« غوامض التدبير ، لما أمكننى جمع ما أخلفه لك ، ولا حفظ
« ما حبسته عليك ، ولم أحمّد نفسي على جمعه كما حمدتها على
« حفظه . وقد حفظته من فتنة الأبناء ، ومن فتنة النساء ،
« ومن فتنة الثناء ، ومن فتنة الرياء ، ومن أيدي الوكلاء ،
« فإنهم الدار العياء .

« ... وأنا لو ذهب مالى لجلست قاصاً ، أو طفتُ فى الآفاق

(١) الكتاف الذى ينظر فى الأكتاف ، فيسكن قبيها .

« كما كنت مكديا . اللحية وافرة بيضاء ، والحلق جهيرٌ طل^(١) »
 « والقبول على واقع . إن سألت عيني الدمع أجابت . والقليل
 « من رحمة الناس خير من المال الكثير . وصرت محتالا بالنهار
 « واستعملت صناعة الليل^(٢) ، أو خرجت قاطع طريق ، أو
 « صرت للقوم عينا ، ولهم مجهرًا^(٣) »

« سل عني صعايلك الجبل ، وزواقيل الشام^(٤) ، وزط^(٥)
 « الآجام^(٦) ورؤوس الأكراد ، ومردة الأعراب^(٧) ، ولصوص
 « القفص^(٨) »

« سل عني القيقانية^(٩) والقطرية^(١٠) . وسل عني ذبأحي
 « الجزيرة . كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة
 « الحيلة . وكيف ثبات جناني عند رؤية الجند ، وكيف كلامي
 « عند السلطان إذا أخذت ، وكيف صبري إذا جُلدت ، »

(١) الحلق الجهير : ذو الصوت الجهير ، وطل حسن .

(٢) السم : الهيثة .

(٣) صناعة الليل : السرقة .

(٤) عينا أي جاسوسا .

(٥) الزواقيل اللصوص .

(٦) الزط جنس من السودان طوال نحاف ، واحد زطى .

(٧) مراد يورد إذاعتا ، فهو مارد .

(٨) القفص جيل من لصوص كرمان (اللسان)

(٩) لصوص من قيقان على حدود الهند (مقدمة البغلاء طبعة لندن)

(١٠) القطر موضع بين واسط والبصرة ، والنسبة إليه .

« وكيف قلة ضجري إذا حُبست ، وكيف رَسَفَانِي في القيـد .
 » إذا أثقلت .

« كم من ديماس قد نقبته ، وكم من سجن قد كابدته .
 » وأنت غلام بعد ، وليس شيء أخوف عليك عندي من حسن
 » الظن بالناس ، فإنهم شمائلك عن يمينك ، وسمـعك على
 » بصرك^(١) ... »

ثم مات !

فانظر إلى هذا المكدي . إنه لم يدع رذيلة إلا ارتكبها ،
 ولا طائفة من اللصوص إلا عرفها ، ولا فئة من المكدين إلا
 عاشرها ، ولا حيلة من حيل الليل والنهار إلا طرقها ، ولا قطراً
 من الأقطار إلا دخله . حتى غدا كقارون في الغنى ، وكذي
 القرنين في التطواف .

وبعد ، فتلك هي الكدية ... وأولئك هم المكدون .

(١) البخلاء ٩٤ (دار الكتب) ٧٨ (دمشق) .